كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

صفات المجتمع المسلم في سورة الحجرات

{ دراسة أسلوبية }

إعداد

د . محمود عبدالرحيم محمد حسين

مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الرابع والثلاثون – الجزء الأول ٢٠١٥م)

جامعـــة الأزهـر
كلية اللغة العربية
قسم الأدب والنقد

صفات المجتمع المسلم
في سورة الحجرات

{ دراسة أسلوبية }

دكتور

محمود عبد الرحيم محمد حسين

مدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـد ،،،

فسورة الحجرات تعد بمثابة مدرسة متكاملة، تربى في ضوئها أصحاب محمد – ﷺ –، فإنها مع قصرها، وقلة عدد آياتها جاءت شاملة لآداب وأحكام وأوامر ونواهٍ لا تجدها مجتمعة في سورة سواها، وهي تهدف إلى ترسيخ قواعد تربوية في نفوس المسلمين عبر مجموعة من الضوابط والآداب المجتمعية الراقية في علاقة المسلم بمصدري التلقى ثم علاقته بأخيه المسلم ثم علاقته بالإنسان أيا كان ومتى وجد .

والدراسة الأسلوبية من الدراسات التي تحتل مكانة عالية في دراسات علم اللغة حالياً، وتعد من المناهج التي اعتمدت علي الدراسات اللغوية أساساً في تحليل النصوص. ولعلم الأسلوب اتجاهات مختلفة تستخدم فيها المستويات المتعددة للتحليل اللغوي، ومن هنا تحاول هذه الدراسة أن تعالج (صفات المجتمع المسلم في سورة الحجرات دراسة أسلوبية) فتحاول أن تقف على جمال النظم ودقته في التعبير عن هذه الصفات .

وذلك للكشف عن القدرة الفنية ، والإبداع التصويري ، والأداء التعبيري الأصيل في لغة السورة الكريمة ، باعتبارها – في هذا الصدد – مصدر علمنا وثقافتنا اللغوية والأدبية ، ومنبع ثروتنا الفكرية الخالدة ، وروح عقيدتنا التي لا نحيا بدونها..

ومن هنا يأتي اختيارنا للمنهج الأسلوبي وسيلة نستطيع من خلالها النفاذ إلي عمق النص في السورة الكريمة، وهو بصدد تلوين ملامح الصورة المجتمع المسلم، بما يحمله هذا المنهج من إمكانيات دراسية تحليلية عميقة ، نستطيع من خلالها أن نرصد جماليات النص في هذه السورة الكريمة .

أهداف البحث :

أما أهداف البحث فتتلخص في :

- دراسة المستويات المختلفة الأسلوبية في السورة الكريمة كنص ، وكشف العلاقات اللغوية المختلفة بينها .
- عرض أسلوب السورة الكريمة لحقائق وصفات شخصية المسلم ، وهل هي حاصلة قبل الخطاب في السورة أم أثر له ، وذلك بخصائص جلية تعطي للنسق الوصفي لصورة المجتمعات روعة ووضوحا ، ويأتي هذا من خلال التعبير الفني والبنيان المتماسك المتناسق الذي يتميز به القرآن الكريم .
- وبما أن الدراسة الأسلوبية تكشف عن جماليات النص على وفق مستويات عدة من التعبير ، لذا جاء هذا البحث ليدرس السورة دراسة أسلوبية بوصفها أكثر سور القرآن الكريم التى تكررت فيها التوجيهات بصورة مباشرة ؛ مما يستدعي سياقات متعددة وأساليب متعددة في التعبير .
- الوقوف من خلال الدراسة على الدقة البلاغية والفصاحة البيانية في أعلى درجات البلاغة ، الأمر الذي يسهم في الوقوف على جانب كبير من جوانب الإعجاز البياني في أسلوب العرض القرآني لمفردات وألوان صورة المجتمع المسلم كما جاءت فى السورة الكريمة .

خطة البحث :

قام البحث على مبحث تمهيدي وأربعة مباحث رئيسية وخاتمة .

تضمن المبحث التمهيدى : مطلبين :

المطلب الأول : التعريف بالسورة الكريمة من حيث : اسم السورة وزمن نزولها وموضوعها ومناسبتها لما قبلها ثم مناسبة افتتاحية السورة بخاتمتها .

المطلب الثاني: آداب المجتمع المسلم كما جاءت في السورة نظرة عامة

ثم خصصت كل مبحث من المباحث الأربعة الرئيسية بمستوى من مستويات الأسلوب وهي:

المبحث الأول : المستوى الدلالي العام .

المبحث الثاني : المستوى البنائي .

المبحث الثالث : المستوى التركيبي .

المبحث الرابع : المستوى التصويري .

أما المبحث الأول : المستوى الدلالي العام :

فجاء لدراسة مجموعة الدلالات اللغوية التى تحيل الى مدلول معين فوقفنا على الكلمة (المفتاح) وإشعاعاتها المتنوعة والمبثوثة في ثنايا النص الكريم وطرائق وأساليب مخاطبة المولى – ﷻ – لمن اتصف بهذا الوصف أو هذه الكلمة الشاملة ، عبر بناء الشخصية الاجمالية للمسلم كحالة ، وشخص ، وعضو في بنية مجتمع ، بل وكإنسان ؛ عن طريق انسجام البني التعبيرية الرئيسة بكل مفرداتها مع المعنى العام أو المدلول العام في الخطاب .

المبحث الثاني : المستوى البنائي:

وقد جاء لدراسة أنساق الجملة والتي بها يتكون البناء اللغوي العام في النص ، في سبيل التعبير عن المعنى المراد ، فوقفنا على تقسيم الجملة في هذه السورة الكريمة إلى عدة أنساق لغوية بنائية ، كالنداء والاستفهام والشرط الخ .

المبحث الثالث : المستوى التركيبي :

وقد جاء لدراسة ورصد الميزات التركيبية للنص في السورة الكريمة عبر الوقوف على بنية ونسق هذا التركيب من حيث التوزيع والاختيار بين المفردات المكونة للنص ، وهو ما يعرف بـ (العدول والعدول بأمر الله تعالى) في الصيغ والأبنية أو في العلاقات التجاورية ، على نحو يوفر حالة من الاتساق التام والتلاءم الرائق .

المبحث الرابع : المستوى التصويري :

وقد جاء لدراسة القيم الجمالية والبعد التأثيري للنص الكريم في العقل والوجدان ، في الملتقي بوجه عام والمسلم كفرد في بنية المجتمع بوجه خاص بما تحمله من عناصر الخيال والإثارة .

ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج التى توصلت إليها .

هذا وأسأل الله جل وعلا أن يجعل هذا البحث نافعا ومحققا للأهداف التي كتبت من أجلها، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

المبحث التمهيدى

المطلب الأول

التعريف بالسورة

اسم السورة :

تتألف سورة الحجرات من ثمانية عشرة آية وهي سورة مدنية [١]، وقد حكى الإمام القرطبي الإجماع على ذلك[٢] ، واسمها " الحجرات " بضمتين جمع حجرة – بسكون الجيم – والمراد بها بيوت أزواج النبي – ﷺ – [٣] .

سبب التسمية :

سميت سورة الحجرات لأن الله تعالى ذكر فيها بيوت النبي – ﷺ – وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين الطاهرات – رضوان الله عليهن – ، يقول القاسمي : " وسميت بها لدلاله آياتها على سلب إنسانية من لا يعظم رسول الله غاية التعظيم ، ولا يحترمه غاية الاحترام ، وهو من أعظم مقاصد القرآن ... " [٤].

زمن نزولها :

هي سورة مدنية من المثاني عدد آياتها ١٨ آية ، ترتيبها التاسعة والأربعون في المصحف الشريف ، نزلت بعد المجادلة ، نزلت في المدينة وهي أول سورة مدنية ، وهذا له دلالة معينة ، فهي من السور ذات الرموز البنائية التربوية التعاملية التي تحتاجها الأمة ، والمتأمل للسورة المدنية يجدها هكذا ، فبعد الانتهاء من البناء العقدي للنفوس في المرحلة المكية وصار لديها استعداد لتقبل وتنفيذ أمر الله بكل طواعية وتلقائية وانقيادية ، لأن ذرات الإيمان قد امتزجت مع خلايا الدم في عروق المؤمنين ؛ فصاروا أداة لينة في تقبل التكاليف التي أمر بها رسول الله – ﷺ – ، وصار لديهم استعداد للتضحية ، والدليل أنهم قدموا أرواحهم رخيصة في سبيله – ﷻ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير : ٧ / ٤٨٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي : ١٦ / ٢٥٥ ، ط : دار الكتاب العربي ، القاهرة ، د. ت .

(٣) فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني : ٩ / ٥٦٤ .

(٤) محاسن التأويل : م ٩ / ج ١٥ / ص ١٠٥ ، ط : دار الفكر ، بيروت ، ط: الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

– ، لهذا صار لابد من اكتمال المشروع الإسلامي خلال المرحلة الثانية منه ، وهي المرحلة المدنية . فلقد تم البناء الأول في المرحلة المكية ، وهي ترسيخ أسس هذا الدين وهو التجرد من شوائب التبعية للقبلية والأسياد والسجود للأصنام إلى صرف السجود والخضوع إلى رب واحد بدلاً من الأرباب بكل عفوية ومحبة وخوف ورجاء وتلقائية واندفاع ، فصاروا بحاجة ماسة إلى البناء الآخر وهو بناء التعامل ، لأن من يتبع هذا الدين ينتظره دور خطير على مسرح الحياة لإنقاذ البشرية وإخراجها إلى ساحات النور ، فلابد من أن نقدم الصورة الحقيقية لهذا الدين كما أراد الله أن يكون . ولا شك أن كل طرائق القرآن الكريم في التعبير تختلف تبعا للمتلقى بين كل مرحلة .

وهي أول سور المفصل لكثرة الفصل فيها بالسور، أو لأنه محكم لا نسخ فيه.

موضوع السورة :

فموضوع هذه السورة كسابقتها سورة (الفتح) : أحكام شرعية وهي أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامي على أساس متين من التربية القوية والأخلاق الرضية ، حيث تضمنت حقائق التربية الخالدة وأسس المدنية الفاضلة حتى سماها بعض المفسرين " سورة الأخلاق " ، وفي هذا المعنى يقولُ القرطبي في تفسيره : " فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب " [١] .

فهي سورة جليلة ضخمة بمعناها ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة ، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهذيب ومبادئ التشريع ، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات [٢] .

مناسبة السورة لما قبلها :

---

(١) ينظر : صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني : ٣ / ٢٢١ ، الناشر : دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط : الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م، وينظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي : ٢٦ / ٢١١ ، الناشر : دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ط : الثانية ١٤١٨هـ ، وينظر : الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : ١٦ / ٣٠٠ .

(٢) ينظر : في ظلال القرآن : ٤٨٧/٦ .

لما نوه الله – ﷻ – في سورة القتال بذكر النبي – ﷺ – ، وصرح في ابتدائها باسمه الشريف ، وسمى السورة به، وملأ سورة الفتح بتعظيمه –ﷺ–، وختمها باسمه : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ } [١] – عليه الصلاة والسلام – ومدح أتباعه لأجله ، افتتح هذه السورة باشتراط الأدب معه في القول والفعل ؛ للعد من حزبه، والفوز بقربه، ومدار ذلك على معاني الأخلاق.

و تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي سورة الفتح من نواح ثلاث ، هي:

١- في السورة المتقدمة حكم قتال الكفار، وفي هذه حكم قتال البغاة (أهل الثورة الداخلية) .

٢- ختمت السابقة بقوله تعالى :{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا } وافتتحت هذه بـ { يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } .. تذكيرا لهم بحرمتهم عند اللَّه عند ما وصفهم بكونهم أشداء رحماء، مما يقتضي محافظتهم على هذه الدرجة بطاعة اللَّه تعالى والرسول – ﷺ – .

٣- في كلتا السورتين تشريف وتكريم لرسول اللَّه – ﷺ – ، خصوصا في مطلع كل منهما، والتشريف يقتضي من المؤمنين الرضا بما رضي به الرسول – ﷺ – من صلح الحديبية، وألا يتركوا شيئا من احترامه قولا وفعلا[٢].

مناسبة افتتاحية السورة بخاتمتها :

بدأت السورة الكريمة بقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } هذا مطلع السورة ، لا تقدموا معناها لا تقطعوا أمراً وتجزموا به وتجترئوا عليه قبل أن يحكم الله تعالى به.

لا تذكرون حكم أو تجترئون على إصدار حكم لا تجترئوا ولا تقطعوا أمراً إلا بعد أن يحكم الله فيه ، وقال في آخرها : { قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [٣] كأن الحكم قبل حكم الله كأنهم

---

(١) سورة الفتح – آية ٢٩ .

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي : ٢٦ / ٢١٢ ، ط : دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ط الثانية ١٤١٨هـ .

(٣) سورة الحجرات – آية ١٦ .

يعلمون الله . هل أنت تُعلِّم الله ؟ كلا ، إذن لا تقدموا ، وفي الأول قال : { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } وفي الختام : { وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } وليس هذا فقط وإنما ختمها : { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [١] سميع بصير بكل شيء ، وعليم بكل شيء . لا تقدِّموا – أتعلّمون الله بدينكم ؟ لا تقدموا أسلوب نهي واستفهام استنكاري أنكر عليهم هذا الأمر كيف يقدمون ؟ هل يعلّمون الله ؟ إذن لا تقدموا ، وهكذا .

(١) سورة الحجرات – آية ١٨ .

المطلب الثاني

آداب المجتمع المسلم كما جاءت في السورة

نظرة عامة

إن المجتمع الإسلامي مجتمع محكوم بشرع الله – ﷻ – ؛ وهذا يعني أن تركيب هذا المجتمع يعتمد على ثلاثة أقطاب : مشرِّع ومبلِّغ ومنفِّذ منقاد.

وإن هذا التركيب يفرض أنواعاً من التعاملات والسلوكيات ما بين الرعية والسلطة التشريعية من جهة، والقيادة والرعية من جهة ، وأفراد المجتمع المسلم من جهة أخرى . على النحو الذي يمكن معه أن نطلق علي هذا الفرع اسم " أسوار الأمان " نظراً إلى الأهداف التي نتوقّع تحقيقها منه ، وهي صون المجتمع من الانحراف من خلال مراعاة الضوابط والقواعد التي تحدّثنا عنها . ولأنّ حفظ الأمن والأمان المجتمعي أعلى قيمة ينبغي المحافظة عليها .

فالآيات في السورة الكريمة مغلفة بسياج من الاحترازات والاحتياط من التقوى أو تقديم السبب ، أو الأوامر أو النواهي والعلة في كل .

ولسوف نتناول – بإيجاز – فيما يلي مجموعة الآداب هذه بحسب جهة التعامل كما وردت في هذه السورة وهي على ثلاث صور .

الصورة الأولى : **آداب التعامل مع السلطة التشريعية** :

لا شك أن تحرير آداب التعامل مع الله تعالى ومع الرسول – ﷺ – باعتبار دوره التشريعي[١] هو الخطوة الأولى في تزكية المجتمع الإسلامي، وهو ما افتتحت السورة الكريمة به تأصيلاً وتأديباً لجماعة المسلمين، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

---

(١) من المعلوم شرعاً جواز التشريك بين الله تعالى والرسول – ﷺ – في الأمور الشرعية بينما يحرم ذلك في الأمور الكونية ؛ فلقد ورد في النص الصريح : { وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ } [التوبة : ٢٩] فشرَّك بين الله تعالى ورسوله – ﷺ – في الأمر الشرعي وهو التحريم، أما المحظور فهو التشريك بينهما في الأمور الكونية كالمشيئة والقدرة ، كما ورد في الحديث : " أن رجلا من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلا من أهل الكتاب فقال : نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشاء محمد وذكر ذلك للنبي– ﷺ – فقال : والله إن كنت لأعرفها لكم قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد " [صحيح ابن ماجة ، الألباني] فنهى عن التشريك في المشيئة وهي أمر كوني.

تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [١] . ومن هذه الآداب :

أولاً: تحريم الافتئات على الله والرسول :

والأصل في هذا قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } [٢]، والحقيقة إن هذا الأدب يتناول أمرين اثنين؛ أحدهما توقف المسلم في الأمور الشرعية حتى يأتي بيانها من الشرع ، والثاني الأدب اللازم في حضرة شخص النبي – ﷺ – .

ثانياً: تحريم رفع الصوت والأمر بغضّه بين يدي النبي – ﷺ –:

ولقد ورد هذا النهي صريحاً في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } [٣] وفهمه الصحابة فهماً ظاهراً وتمثلوه سلوكاً عملياً لازماً لهم .

ثالثاً: تحريم الجهر بالقول للنبي – ﷺ – :

الجهر لغةً : من الجهرة أي ما ظهر، وجهر الكلام أي أعلن به[٤]، وهذا الجهر المنهي عنه لا بد من تحرير ضابطه، إذ أن النهي المطلق عن مخاطبة النبي – ﷺ – غير متصور شرعاً ولا عقلاً، فطبيعة الرسالة تستلزم قدراً أدنى من التخاطب والتحاور والكلام، ولهذا جاء النهي في الآية مقيداً فقال تعالى : { وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ } [٥] .

---

(١) سورة الحجرات – آية ١– ٥ .

(٢) سورة الحجرات – آية ١ .

(٣) سورة الحجرات – آية ٢ .

(٤) المحيط في اللغة عالم الكتب : ٣ / ٣٧٤ ، تحقيق الشيخ : محمد حسن آل ياسين ، بيروت ، لبنان ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، ط : الأولى ، والمعجم الوسيط : ١/ ١٤٢ ، دار النشر : دار الدعوة ، تحقيق: مجمع اللغة العربية .

(٥) سورة الحجرات – آية ٢ .

رابعاً : النهي عن إزعاجه – ﷺ – :

لم يكن النبي – ﷺ – يحتجب عن الناس قط إلا لحاجة لا يسعه إهمالها سواء أكانت لإصلاح شأن أهله أو بيته أو نفسه فيما بينه وبين الله – ﷻ – ، فكان – والحال كذلك – من سوء الأدب أن يقوم أحد من الناس بإزعاجه – ﷺ – في هذه الأوقات الخاصة اليسيرة ، وكان من سوء الأدب التطاول على خلوته – ﷺ – بأهله لأمر ليس ذي بال .

الصورة الثانية : **آداب السياسة الشرعية** :

وهنا جملة من الضوابط التي يجب أن تتحلى بها القيادة الإسلامية مما يدور في فلك السياسة الشرعية ، ولكنه لصيق الصلة بمنظومة الأخلاق والسلوك الاجتماعي ؛ لأن مداره على التفاعل مع المجتمع والتعامل مع ما يرد عليه من أخبار وما يطرأ عليه من أحداث ، وتتمثل هذه الضوابط في الآيات الخمس التالية من هذه السورة الكريمة، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [١] .

فالقيادة المسلمة تجد نفسها أمام التزام أخلاقي يفرض عليها التريث والتحقق قبل اتخاذ القرارات وعدم الجري وراء كل شائعة وشاردة وواردة، وإلا فإنها قد تدفع بالمجتمع المسلم إلى العنت والمشقة ، كما قال تعالى : { لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ } [٢] ، كما أنها أمام التزام أخلاقي يفرض عليها الحفاظ على رباط الأخوة الإيمانية في نفس الوقت الذي تدعم فيه أركان الأمن السياسي في الأمة

---

(١) سورة الحجرات – آية ٦-١٠ .

(٢) سورة الحجرات – آية ٧ .

المسلمة ، ولنستعرض مقومات هذه المنظومة في ضوء هذه الآيات الكريمات :

أولاً : التثبت في الأخبار :

ثانياً : الإصلاح بين المؤمنين :

إن المجتمع الإسلامي لا يخرج عن طبيعته البشرية التي قد تدفع به أحياناً إلى بعض المواقف التي تحيد بأفراده عن الجادة، فتوقع الضغائن والشحناء مع ما يترتب على ذلك من خصومة وشجار ، وربما قتال في بعض الأحيان .

ثالثاً : قتال البغاة :

قد لا تجدي مساعي الإصلاح السلمية في رفع الخصومات ووقف الاقتتال، بل قد تتميز فئة من المسلمين وتنحاز بقوة قتالية تواجه بها فئةً أخرى من المسلمين، أو ربما المجتمع الإسلامي بأسره ؛ فيتربص خطر الفتنة بأمن وسلامة المجتمع كله ، وتجد القادة الإسلامية نفسها أمام خيار وحيد هو القوة في مواجهة القوة ؛ قوة الحق الضاربة على الباطل ولو كان هذا الباطل متمثلاً في إخوةٍ لنا في الدين .

الصورة الثالثة : **أخلاق وآداب التعامل مع المسلمين** :

إن تعامل المسلمين مع بعضهم البعض أمر لازم في سياق الحياة الاجتماعية اليومية، وهو مظنة كثير من الانحرافات والأخطاء والتعديات التي نراها تكاد تفتك بالمجتمع وتفرط عقد الجماعة وتطعن في مصداقية الأخوة الإيمانية مع الأسف .

ولقد اهتمت هذه السورة بتصحيح جملة من المفاهيم والتنفير من مجموعة من السلوكيات الخلقية المنحرفة الشائعة ، لترتفع بأفراد المجتمع فوق فوضى انعدام الأخلاق إلى أفق وسمو المجتمع الإنساني المسلم بحق وإن المتدبر في هذه السورة العظيمة يجد عرضاً موجزاً في آيتين اثنتين لا أبالغ إذا قلت إن فيهما ما يكفي لضبط أي مجتمع بضابطٍ من الأخلاق ينأى به عن أي خلل مؤثر في سير المجتمع وعلاقة أفراده ببعضهم البعض، وما الإعجاز إن لم يكن هذا ؟ تأمل هذه الكلمات الموجزة المعجزة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ

بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } (١) .

فقد أجملت هاتان الآيتان ست قبائح خلقية اجتماعية لا يتصور قيام مجتمع راقٍ خلوقٍ يرضى باستقرار لوثةٍ من لوثاتها فيه، وهذه القبائح الست هي : السخرية واللمز والتنابز بالألقاب واتهام المؤمنين بالظنون الضعيفة والتجسس على المؤمنين والغيبة للمؤمنين المتقين ، وتفصيلا ورد النهي عنها في السورة في ست نقاط بيانها كالآتي :

أولاً : النهي عن السخرية :

إن هذا السلوك الاجتماعي الشائن يعكر على أفراد المجتمع المسلم صفو علاقتهم ويكدر صفاء مبادئهم؛ فلا يسلم الاعتقاد بأفضلية المسلم وتساويه في الحقوق مع أخيه المسلم مع الاستهزاء به والسخرية منه، فكان لا بد من توجيه قرآني يلفت الانتباه إلى أصل الرابطة الإيمانية المشتركة بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ ... } الآية .

ثانياً وثالثاً : النهي عن اللمز وعن التنابز بالألقاب :

ولقد نفَّرت السورة الكريمة من هاتين الخصلتين القبيحتين بوصف من تلبس بهما بالفسوق، وبينت أنه لا يليق بمن منَّ الله عليه بوصف الإيمان أن يعدل عنه إلى وصف الفسوق فقال تعالى: { بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ } (٢) .

رابعاً: النهي عن الظن السيء بالمؤمنين:

إن من الإثم أن يتهم المسلم أخاه المسلم ويخوِّنه، وما ذلك إلا إثمٌ محض حري بالمسلم أن يجتنبه ويترفع عنه، ولما كانت كثرة الظنون مفضيةً إليه جاءت السورة بالتوجيه الرباني لتأمر المؤمنين باجتناب الظن احتياطاً لاحتمال التهمة في غير محلها ، التجسس مبني على سوء الظن ، فجاء الترتيب منسقاً، اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ فإذا ظننتم ولا بينة عندكم فلا تتبعوا سوء الظن بالتجسس لتتحققوا فيما ظننتم فيه ، وهذا في غاية من البلاغة والتنسيق القرآني الكريم، ظننت ثم ذهبت فتجسست

---

(١) سورة الحجرات – آية ١١-١٢ .

(٢) سورة الحجرات – آية ١١ .

لحب الاستطلاع، فستجد نتيجة إما سلباً أو إيجاباً، فلما لم تجد شيئاً رجعت بخفي حنين، أو أنك وجدت شيئاً مما كنت تظن، فماذا يكون موقفك ؟ قف عند هذا ولا تذهب تغتاب أخاك فيما رأيته من تحقيق ظنك السابق . إذاً : يبدأ سوء الظن وهو عمل القلب، ثم تأتي الخطوة الثانية وهي: التجسس وهو عمل الجوارح، وتأتي الخطوة الثالثة بمقتضى تجسسك بأن تغتابه بذكر ما رأيت من معايب. أرأيتم هذا النسق القرآني العجيب ؟ هذا هو الإعجاز .

خامساً : النهي عن التجسس :

قال الحافظ ابن كثير: والتجسس غالباً يطلق على الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، وقد يستعمل كل منهما في الشر [١] ، والشاهد أن النهي قد جاء في الآية باللفظ الذي يغلب استعماله في الشر فقال تعالى: { وَلَا تَجَسَّسُوا } . وهنا نكتة لطيفة وهي أن المرء لا يقوم بالتجسس على غيره عادةً إلا عندما يتهمه ويسيء الظن به، فناسب والحال كذلك أن يكون الترتيب في النهي في هذه الآية عن سوء الظن أولاً ثم عن التجسس، وما هذا التناسب إلا دليل من الأدلة الكثيرة على موافقة التوجيهات الشرعية للطبائع البشرية، قال تعالى: { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [٢] .

سادساً : النهي عن الغيبة :

وبهذا تكتمل جملة القبائح الاجتماعية التي نهت عنها السورة، وإن المتدبر ليدرك أن المجتمع الذي يستطيع تخليص نفسه وأفراده من هذه الرذائل مجتمعٌ قمنٌ بارتقاء أسمى مراتب الرقي الاجتماعي والإنساني بل والتعبدي عندما يؤطر كفَّه عن هذه المنهيات في إطار الانقياد لأمر الله – ﷻ – [٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٧ / ٣٧٩ ، تحقيق : سامي بن محمد السلامة ، الناشر : دار طيبة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .

(٢) سورة الملك – آية ١٤ .

(٣) آداب وضوابط المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات، د/ وسيم فتح الله ، بحث منشور على موقع صيد الفوائد : *www.saaid.net/book* على شبكة المعلومات الدولية

الوحدة الموضوعية لسورة الحجرات :

بما أنها سميت سورة الأخلاق والآداب لكثرة التركيز على أخلاق وآداب معينة يجب على المؤمن التحلي بها ، فأرفع تلك الآداب وأعلاها هو التلقي عن الله ورسوله – ﷺ – في كل شأن وعدم التقدم على أمر الله ورسوله – ﷺ – في شيء ثم يأمر المؤمنين بالتقوى .

ثم تتحدث السورة عن الأدب مع رسول الله – ﷺ – وهو مرتبط مع الآية الأولى ؛ فمن عرف قدر الرسول عليه السلام ومكانته عند ربه فلابد من أن يتأدب معه .

ثم تتحدث السورة عن المنهج الذي يلتزمه المسلم في تلقي الأخبار وقبولها وروايتها وهو التثبت والتحري وعدم تناقل الأخبار بدون تروٍ أو معرفة صدقها من كذبها .

ثم تتحدث السورة عن المنهج الذي يجب على الأمة المسلمة أن تلتزمه تجاه أولادها اذا قام بين فئتين منهما خصومة وشجار أدى الى الخصومة والقتل ، فموقف الأمة أن تحكم شرع الله وهدي نبيه وعدم التقدم بين يدي الله ورسوله وتعمل على الصلح بين الفئتين .

ثم أعلنت قيام رابطة الاخاء والود بين المؤمنين وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة واثارة النزاع بين أفرادها وتوليد الأحقاد والضغائن والكراهية بسبب السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب ، سواء بين الرجال أو النساء أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس (تتبع العورات) والغيبة والنميمة .

ثم أعلنت مبدأ الاخاء الانساني، والمساواة بين الشعوب والأفراد من مختلف الأجناس والألوان ، فلا عداوة ولا طبقة ولا عنصرية ، وانما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح ومكارم الأخلاق .

وتختتم السورة بالكلام عن الأعراب، فميزت بين الايمان والاسلام وذكرت عن صفات المؤمنين وشروط المؤمن الكامل وعابت المن على الرسول بالإسلام ووضعت ضابط احترام القيم الدينية والأخلاقية وهو رقابة الله – ﷻ – لعباده وعلمه بغيب السماوات والأرض وبصره بجميع أعمال الخلق .

صورة المجتمع المسلم في سورة الحجرات

(دراسة أسلوبية)

مدخل :

نحاول في المباحث الآتية أن نأخذ بمنهج الأسلوبية في دراسة نسق السورة الكريمة وأسلوبها في رسم صورة المجتمع المسلم ، وذلك من خلال منظور عملي تطبيقي نتجاوز فيه فلسفة الأسلوبية بتشعباتها ومداخلها المتعددة من ناحية ، وصلتها بالفكر الغربي والعلمانية العالمية من ناحية أخرى ، ونعتبرها – بصورتها الإجمالية – أداة للتعرف على جمالية التعبير في السورة الكريمة بعد أن أدى الدرس البلاغي دروه في اكتشاف هذه الجمالية على نحو ما هو مقرر ، مستغلين ما تميزت به الأسلوبية من حيث تحديد ساحة عملها في دراسة عدة مستويات أسلوبية :

- قيم اللغة والبعد الدلالي .
- قيم اللغة والبنائي لها .
- قيم التركيب والبعد التعبيري فيها .
- القيم التصويرية الجمالية والبعد التاثيري لها .

هذه المستويات هي ما سنحاول الوقوف عليه ونحن بصدد الحديث عن أسلوبية السورة الكريمة في إقرار عدة أحكام شرعية واجتماعية وسلوكية عامة تتصل بتوجيه المسلم في حركته الحياتية العامة وصلته بمحيطه الاجتماعي والإنساني العام .

المبحث الأول

المستوى الدلالي

ونقصد بالمستوى الدلالي هنا ، هو مجموعة الدلالات اللغوية التى تحيل الى مدلول معين ، إذ أن كل ما في نسق السورة الكريمة له دلالة حتى الضمائر تؤدي دورا في بناء الصورة الاجمالية للمسلم كحالة ، وشخص ، وعضو في بنية مجتمع ، بل وكإنسان ؛ اذ تنسجم البني التعبيرية بكل مفرداتها مع المعنى العام أو المدلول العام .

فعلى صعيد البعد الدلالي العام للسورة الكريمة سنحاول أن نقف على دراسة المفردة المفتاح (آمنوا) باعتبارها المنوط بها الخطاب العام والكشف عن طاقاتها التعبيرية عقب دخولها نسق النظم في عناصره المتعددة ، بدءاً من كونها المفردة بعد دخولها النسق إلي الجملة ثم الآية والسياق وأساليب التعبير والظواهر الأسلوبية الأخرى ؛ حيث شكل هذا التكرار الذي سميناه متتاثراً حقولاً دلالية تنصر الكلمة المركزية أو المفتاح لتضفي نوعاً من الإيحاء على النص لتكتمل به مغازيه ، وهو قضية الايمان وعوالقها وتبعاتها وانعكاساتها على السلوك العام للمسلم في أرض الواقع .

وأجد من المناسب أن أشير إلى أن لفظ الإيمان بتصاريفه المتعددة ، قد ورد في هذه السورة خمس عشرة مرة ، مع أن الآيات لا تتجاوز ثمان عشرة آية ، فعلام يدل ذلك ؟ وحاشا لله أن يأتي حرف في كلامه بلا غاية أو هدف وتوظيف .

مما يدفعنا إلى أن نخضع البعد الدلالي لتلك الكلمة لحركة القراءة التي يجريها القارئ حول النص ، فهي شكل من أشكال إنتاج الدلالة النصية .

فالإيمان هو الاعتقاد الجازم بوجود الله تعالى ربا وإلها ومعبودا واحدا لا شريك له ، والإيمان بأسمائه وصفاته التي وردت في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية من غير تحريف لمعانيها أو تشبيه لها بصفات خلقه أو تكييف أو تعطيل .

نجد أن الايمان بالله يكون من خلال التدبر في الكون والنفس ، وترشدنا الايات وتعرفنا ضرورة الإيمان بالله – ﷻ –، وتدلنا بل تبرهن برهان محكم وقاطع على وحدة الخالق – ﷻ – : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } .

ولهذا جاء التعبير بـ (آمنوا) على الإطلاق ليشمل الإيمان بالرسول والثقة به والاطمئنان إليه والإيمان له ، قال تعالى : { قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ } [١] والاستسلام له واتباعه وطاعته والانقياد إليه ، وقال تعالى: { قالَ آمَنْتُم ْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ } [٢] .

فكل من آمن بالنبي لا بدّ أن يؤمن له ، فضلا عما تثيره المادة من الشعور بالقرار والاستقرار والأمن النفسي المترتب مما يجعل القبول أمرا واجبا ، ومن ثم جاء الخطاب بالتشريع أمر تابعا وتاليا وطبعيا لخطاب الدعوة والإجابة .

وهنا نكون قد خرجنا من حيز المفردة لتتعلق بالنسق على مستوى النص بكاملة ، ونخرج عن حدود اعتماد المفردة بل والجملة ، محاولين أن نضع سقفاً للرؤية الأدبية الشاملة للخطاب ، مما يوقفنا على الوحدة الفنية تطبيقاً عملياً لهذه الرؤية كخطاب وتلقي بقبول ثم تنفيذ واستجابة فعلية .

هذه الرؤية التى تنوعت فيها الأساليب التوجيهية تبعا لتنوع الرسالة في تشريعها وأحكامها ، وظروف المتلقي في خضوعه واستسلامه ، وهيمنة المبدع عز وجل بعلمه وإدراكه المطلق . ومن هذه الأساليب :

أولاً : الترغيب والترهيب :

إذا تأملنا مجموع الآيات التي ضمت الآداب والضوابط الإسلامية المتقدمة ظهرت لنا مجموعة من إشارات الترهيب والترغيب التي تذيل تلك الآيات بحيث تعمل مجتمعةً على تحقيق منظومة متزنة من الدوافع والموانع التي تدفع الفرد المسلم والمجتمع نحو السلوك المرغوب فيه، وتحجزه عن السلوك المرغوب عنه.

فعلى صعيد الترهيب تجد قوله تعالى: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [٣] تحذير وترهيب من عواقب الافتئات على الله ورسوله، وفي مقابل ذلك قوله تعالى ترغيباً في حال الملتزمين بأدب التوقف بين يدي الرسول – ﷺ –: { لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ

---

(١) سورة الأعراف – آية ١٢٣ .

(٢) سورة طه – آية ٧١ .

(٣) سورة الحجرات – آية ٢ .

عَظِيمٌ } [١] وكذلك تجد وصف { أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [٢] يقابله فتح باب التوبة والمغفرة { وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [٣] .

وبهذا يتحقق التوازن بين الترغيب والترهيب توافقاً مع الاستعداد المزدوج في النفس البشرية لتحصيل ما فيه خيرها ودرء ما فيه شرها ومفسدتها ، وما هذا إلا شاهدٌ من الشواهد الكثيرة على فطرية هذا الدين ومصدريته من لدن حكيم عليم .

وقد يأخذ الترهيب صورة التنفير من الشيء باستخدام اللفظ الموحى ذي الظلال في حالتى (الحب والكره) اللتين تتعاور فيهما مشاعر المتلقي بين الرضا والاقبال في حالة معينة ، ثم النفور والاعراض في حالة أخرى ، ومن ذلك التعبير بكلمة (أخيه) في قوله تعالى : { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ } فلم يقتصر على ذكر الإنسان الميت حتى جعله أخاه ، وهذا أبلغ ما يكون في التقبيح والزجر[٤]، وفي التعبير عنه بالأخ جذب للمغتاب عن غيبته لمن يغتاب ؛ لأنّه إذا كان أخاه فالأولى الحنو عليه وطي مساويه والتأول لمعايبه لا نشرها بذكرها [٥] .

ومنه قوله : { وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ } فهو من باب النهي عن لمز الذات وقوله : { أنفُسَكُمْ } : تعظيم لحق إخوانهم عليهم ، فلم يقل : ولا تلمزوا غيركم ، فكأن الشاتم لأخيه شاتم لنفسه ، لأنه يقع في عرض فرد من أفراد الجماعة المسلمة التي ينتمي إليها ، فيعود الذم عليه انتهاء ، ونظيره قوله تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } . وهو تربية للمؤمنين ، وتنبيهاً لهم بأنهم كالجسد الواحد ، فإنه إن عاب أخاه ، فكأنما عاب نفسه ، والعاقل لا يعيب نفسه، قال الرسول الكريم : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له

---

(١) سورة الحجرات – آية ٣ .

(٢) سورة الحجرات – آية ٤ .

(٣) سورة الحجرات – آية ٥ .

(٤) أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الجصاص: ٣/ ٥٤٢ ، المحقق: عبد السلام محمد شاهين ، ط: دار الكتب العلمية، بيروت ، ط : الأولى ١٤١٥هـ١٩٩٤م .

(٥) سبل السلام ، محمد بن إسماعيل المعروف بالأمير اليمني الصنعاني : ١٦٨/٧، ط : دار الحديث، د.ت.

سائر الجسد بالسّهر والحمّى " [١] .

ومن صور أسلوب الترهيب في السورة قوله تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ } عقب النهي عن التقدم بين يدي الله سبحانه وتعالى في صدر الآية الأولى من السورة ، فلما استعار للدلالة على القدرة التعبير باليدين ، وصور البينة ترهيباً من انتقام القادر إذا خولف ، صرح بذلك بقوله تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ } أي اجعلوا بينكم وبين غضب الملك الأعظم وقاية، فإن التقوى مانعة من أن تضعيوا حقه وتخالفوا أمره وتقدموا على شيء لم تعلموا رضاه فيه [٢].

ولما كان سبحانه مع كل بعلمه ، وأقرب إليه من نفسه، فكان مع ذلك غيباً محضاً لكونه محتجباً برداء الكبر وإزار العظمة والقهر، وكان الإنسان لما غاب عنه نساه ، ذكره مرهباً بقوله مستأنفاً أو معللاً مؤكداً تنبيهاً على ما في ذلك من الغرابة والعظمة التي يحق للإنسان مجاهدة نفسه لأجلها في الإيمان به والمواظبة على الاستمرار على استحضاره ، لأن أفعال العاصي أفعال من ينكره : { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

أي الذي له الإحاطة بصفات الكمال . ولما كان ما يتقدم فيه إما قولاً أو فعلاً قال : { سَمِيعٌ } أي لأقوالكم أن تقولوها { عَلِيمٌ } أي بأعمالكم قبل أن تعملوها .

ثانيًا : التذكير بنعمة الله وفضله :

وهذا التذكير بالفضل مدعاة الالتزام بالهدي الإلهي والوقوف عند توجيهاته ، تأمل على سبيل المثال قوله تعالى : { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } فجعل العصيان والفسوق والكفر في مقابل نعمة الإيمان بحيث يرغب من استقر الإيمان في قلبه عن أن يجمع إليه من النقائض ما يكون كفراً بنعمة الله – ﷻ – .

وتأمل التعليل في الآية الثالثة بذكر جزاء من التزم وصحح مساره { أُولئِكَ الَّذِينَ

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب : البر والصلة والآداب، باب : تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، رقم الحديث ٢٥٨٦ .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي ٧ / ٢٢١ دار النشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى } فهذه الجملة تفيد تعليل النهيين (لا تقدموا ... لا ترفعوا) بذكر الجزاء عن ضد المنهي عنهما ، وأكد هذا الاهتمام باسم الإشارة في قوله : { أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى } مع ما في اسم الإشارة من التنبيه على أن المشار إليهم جديرون بالخبر المذكور بعده لأجل ما ذكر من الوصف قبل اسم الإشارة [١] واستخدام اسم الاشارة للبعيد الدال على تعظيم لهؤلاء الذين امتثلوا أمر الله – ﷻ – .

ولعل من أصرح العبارات القرآنية في السورة الكريمة في هذا السياق قوله تعالى : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [٢]، وهنا نكتة دقيقة وهي أنه لما ذكر امتنان الأعراب بالاستجابة لدعوة الرسول – ﷺ – جاء بلفظ الإسلام ليدل على عدم بلوغهم مراتب الكمال ، في حين أنه لما ذكر امتنان الله عليهم بهذا الدين جاء بلفظ الإيمان الدال على تمام نعمة الهداية [٣] فتم فضل الله وظهر قصور عباده عن أداء حق الشكر كما زعموا .

ثالثاً : بيان عواقب عدم التزام هذه الآداب :

لقد جاءت الآيات في هذه السورة بجملة من التنبيهات على خطورة العواقب المترتبة على ترك التزام منظومة الأخلاق القرآنية المعروضة، ففي سياق الأمر بالتثبت في الأخبار جاء التحذير من عاقبة الندم المترتبة على التصرف بغير علم وتثبُّت وتبيُّن ، فقال تعالى : { فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [٤]، وفي سياق النهي عن القبائح الاجتماعية – كالسخرية والتنابز واللمز – جاء التحذير من وقوع الظلم بين أفراد المجتمع نتيجة الاستهزاء بالغير والافتراء عليه ومبالغة الغير في الرد

---

(١) التحرير والتنوير : التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ٢٦ / ١٨٦ ، الناشر : مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ، لبنان ، ط : الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .

(٢) سورة الحجرات – آية ١٧ .

(٣) من المعروف أن لفظي الإسلام والإيمان إذا افترقا في الموضع اتفقا في المعنى – أي كان كلاً منهما مرادفاً للآخر – وأنهما إن اجتمعا في الموضع افترقا في المعنى – أي كان لكل منهما معنى أخص من الآخر.

(٤) سورة الحجرات – آية ٦ .

على تلك السخرية والافتراءات، فقال تعالى : { وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [١] وهكذا.

وقد يمتزج في سياق واحد بيان العاقبة لمن لم يلتزم ، بالتذكير بالنعمة والفضل والنصفة لمن وقع عليه التهوين والانتقاص ، ومن ذلك قوله تعالى عقب النهي عن السخرية ودرأ لاعتقاد خاطئ قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس وانتصافا للطرف الضعيف في معادلة المعاملة بينهم قال : { عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ } فإن معنى عسى في اللغة : الإشفاق والطمع في قرب الشيء ، فهي من أفعال المقاربة، ومعناها في القرآن الكريم هو معناها في اللغة ، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، لكنها إذا جاءت من الله تعالى فإن معناها التحقيق .

ولما كان الذي يقتضيه الرأي الأصيل أنه لا يستذل الإنسان إلا من أمن أن يصير في وقت من الأوقات أقوى منه في الدنيا وفي الآخرة، علل بقوله: {عسى} أي لأنه جدير وخليق لهم { أن يكونوا } أي المستهزأ بهم { خيراً منهم } فينقلب الأمر عليهم ويكون لهم سوء العاقبة [٢]، ثم علل النهي بقوله : { عسى } أي ينبغي أن يخفن من { أن يكن } المسخور بهن { خيراً منهن } أي الساخرات .

فقد فقه المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب: لأنه لفظ يفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً والله تعالى أكرم من أن يطمع واحداً في شيء ثم لا يعطيه [٣] .

رابعًا : تنمية الوازع النفسي للالتزام بهذه الأخلاق :

إن أحداً لا يستطيع أن يفرض التزام مبدأ من المبادئ أو خلقاً من الأخلاق بقوةٍ خارجية أو سلطة قانون، فها هي الدول اليوم تعيش تحت سلطة قوانين وضعية ونظم

---

(١) سورة الحجرات – آية ١١ .

(٢) نظم الدرر للبقاعى : ١٨ / ٣٧٥ بتصرف ، ط : دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

(٣) اللباب في علوم الكتاب لعمر بن علي الدمشقي الحنبلي ، ت : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض : ١٢ / ٣٦٣ ، الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط : الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م

قضائية وشرطة وقوات عسكرية لكنها لم تستطع أبداً أن تحقق أي التزامٍ حقيقي بالأخلاق – إن صح أن يسمى ما عندهم أخلاقاً – ولهذا كان لا بد من حل هذه الإشكالية في منظومة الأخلاق الإسلامية، وليس أقدر على ذلك من قوله تعالى في ختام هذه السورة : { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [١] إذ أن استشعار هذه الرقابة الدائمة من الله – ﷻ – كفيلٌ بتنمية الوازع النفسي في كل فردٍ بما يحقق التزامه بهذه الأخلاق والآداب ولو كان في خلوة من الناس أو معزل عن بطش السلطان وقهر السلطة والقانون، وبهذا فقط تنضبط منظومة الأخلاق في المجتمع . وبهذا يتبين لنا اكتمال عنصر آخر من عناصر الإعجاز في هذه السورة المباركة .

(١) سورة الحجرات – آية ١٨ .

المبحث الثاني

المستوى البنائي

ونقصد بالمستوى البنائي أنساق الجملة التي بها يتكون البناء اللغوي العام في النص ، في سبيل التعبير عن المعنى المراد ، ويمكن تقسيم الجملة في هذه السورة الكريمة إلى عدة أنساق لغوية بنائية ، وهذه الأنساق هي :

(١) **نسق النداء** :

وهو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بأحد حروف النداء ، وهي تنوب مناب أنادي المنقول من الخبر الى الإنشاء [١] .

أسلوب النداء وخصوصيته :

وبإحصاء إحدى الظواهر التعبيرية المهمة في السورة الكريمة ، والذي يمثل إطارا عاما في هذا السياق وهو النداء ، وبالعودة الى فكرة أن الخطاب شامل وعام ؛ فسنتوقف قليلا مع التصدير بنداء الإيمان ومدلوله والتحليل البلاغي له ، في محاولة لربطه بالغاية الكبرى للمعنى المراد .

فمن المعلوم أن الله – ﷻ – قد خاطب المؤمنين بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } في تسعة وثمانين موضعاً من سور القرآن، وتحديدا فى ٢٠ سورة منها وهي : المائدة (١٦ مرة) البقرة (١١ مرة) النساء (٩ مرات) آل عمران (٧ مرات) الأحزاب (٧ مرات) الأنفال (٦ مرات) التوبة (٦ مرات) الحجرات (٥ مرات) النور (٣ مرات) المجادلة (٣ مرات) الممتحنة (٣ مرات) الصف (٣ مرات) محمد (٢ مرتان) التحريم (٢ مرتان) الحج (١ مرة) الحديد (١ مرة) الحشر (١ مرة) الجمعة (١ مرة) المنافقون (١ مرة) التغابن (١ مرة) .

وقد استهلت السورة الكريمة – وهي إحدى سور ثلاث تبدأ بـ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } وهي : (المائدة ، والحجرات ، والممتحنة) – استهلت هذه التوجيهات البليغة بخطاب موجه لعموم ومجموع المؤمنين ، وقد أعقب النداء نهي صريح { لَا تُقَدِّمُوا ... } ولذا فهو موجه لعموم المؤمنين ، لأن النداء هنا لم يرتبط بشرط كـ (اذا) مثلا

---

(١) البلاغة الميسرة ، فيصل حسين طحيمر العلي ، ص ٤٨ ، مكتبة دار الثقافة الأردن ، ط : الأولى .

.. كما في قوله : { إِذَا تَدَايَنْتُمْ } [١] .

فالخطاب في آية الدين موجه لخصوص المتداينين منهم ، والمقصود منه والأخص بالخطاب فيها هو المدين ؛ لأنه من الحق عليه أن يجعل دائنه مطمئن البال على ماله .

ومن دلالة هذا النداء وخصائص نظمه ، واصطفاء عناصره على هذا النحو يبدو فيه ما يدل على إلزامهم بما دخلوا فيه طوعا من إيمان وتسليم .فهم الذين ارتضوا هذا الدين ، وآمنوا به وسلموا لأوامره ونواهيه ، وكأن النداء تذكير لهم بما التزموا به، وارتضوا ؛ فقيل لهم : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } .

فهو " للتنبيه على أهمية ما يرد بعد ذلك النداء لتترقبه أسماعهم بشوق. ووصفهم بـ { الَّذِينَ آمَنُوا } جار مجرى اللقب لهم ، مع ما يؤذن به أصله من أهليتهم لتلقي هذا النهي بالامتثال " [٢] .

أو " على ان ما في حيزه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالايمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع الى المحافظة ورادع عن الإخلال به [٣] بمعنى يا الذين أَقَرُّوا بوحدانية الله ، وبنبوِّة نبيِّه محمد – ﷺ – [٤] .

ومحصلة أقوال أهل العلم يتلخص في مقولة للصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه – حينما قال: إذا سمعت الله يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } فأرعها سمعك ، فإما خير تؤمر به ، وإما شر تحذر منه " [٥] .

ووجه ذلك: أنه إذا علق الحكم بوصف كان ذلك الوصف علة للتأثر به؛ كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا، وكذا؛ أو لا تفعلوا كذا .

---

(١) سورة البقرة – آية ٢٨٢ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٦/ ٢١٥، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤هـ .

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد ابن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ) : ٨ / ١١٥، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٤) تفسير الطبري : ٢٢ / ٢٧٦ ، بتحقيق : شاكر ، ط : الرسالة .

(٥) بحر العلوم ، المؤلف : أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي : ١/ ٣٨٨ ، تحقيق : د / محمود مطرجي ، دار النشر : دار الفكر ، بيروت .

ونلاحظ أن النسق الكريم قد استخدام النداء بصورة مضطردة ومتكررة والمخاطب في معظمها واحد ، وفي ذلك فوائد، منها: " أن في ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد، كقول لقمان لابنه : { يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله } [١] { يابني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ } [٢] { يا بني أَقِمِ الصلاة } [٣] ، لأن النداء تنبيه للمنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل بالَه منه، فإعادته تفيد تجدد ذلك .

ومنها : أن لا يتوهم متوهم أن المخاطبَ ثانياً غير المخاطب الأول، فإن من الجائز أن يقول القائل : يا زيدُ افعلْ كذا وكذا يا عمرو، فإذا أعادة مرة أخرى وقال : يا زيد قل كذا ، يا زيد قل كذا (وقل كذا) يعلم أن المخاطب أولاً هو المخاطب ثانياً .

ومنها : أن يعلم أن كل واحد من الكلامين مقصود، وليس الثاني تأكيداً للأول كقولك : يَا زَيْدُ لا تَنْطٌ ولا تَتَكَلَّم إلا الحق فإنه لا يحسن أن تقول : يا زيدُ لا تَنْطقْ يا زيدُ لا تَتَكَلَّمْ كما يحسن عند اختلاف المطلوبين [٤] .

وعليه فالتصدير بنداء الإيمان في السورة لبيان أن الالتزام بما بعد النداء من مقتضيات الايمان ، أي : إن كنتم آمنتم ؛ فمن مقتضيات الإيمان " ألا تقدموا بين يدي الله ورسوله " .

(٢) نسق الاستفهام

تنهض فاعلية الأداء عبر توظيف الأدوات توظيفاً فعّالاً ومتنوعاً يغني التجربة ويزيد من روعة النص لكسر الرتابة والملل فيما لو جاءت النصوص في مادة تقريرية خالية من إشراك الآخر في الحوار وعدم السماح له في دخول عالم المبدع والتفاعل مع الأحداث ، وهذا الأمر لا يحدث إلا عند توظيف تقنية الاستفهام.

والاستفهام هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن تصديقا أو تصورا، فإن كانت تلك الصورة هي وقوع نسبة بين الشيئين ، فحصولها هو التصديق وإلا فهو

---

(١) سورة لقمان – آية ١٣ .

(٢) سورة لقمان – آية ١٦ .

(٣) سورة لقمان – آية ١٧ .

(٤) اللباب في علوم الكتاب : ١٧ / ٥٢٣ .

تصور [١] .

وقد ورد الاستفهام في السورة الكريمة مرة واحدة في سياق الرد على الأعراب في ادعاءهم الإيمان، حيث أمر الحق تبارك وتعالى نبيه أن يرد عليهم هذا الادعاء، قال تعالى: { قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم } والاستفهام الإنكاري للتوبيخ[٢] كما هو ظاهر.

فنجد أن تلك الآية تسهم في رسم تصور الإسلام للعلم وتلقيه ، ومن ثم تجرم الجرأة على التشريع ووضع الأحكام ، بل ترشد إلى وجوب الاحتياط والتوقف ، وهو التصور المتمركز حول العلم الأزلي له سبحانه – وكمال إحاطته بكل الدقائق ، فالكون وما يحويه من سماوات وأراضين ليس إلا آيات ودلالات وعلامات على صفة الخلق والإتقان والإبداع والتسخير ، والتي تجعل المؤمن متوائما مع الأمر بالامتثال والخضوع منتفعا منه لا مصارعا له ، وهو مرتبط بالأمر الأول في صدر السورة المتعلق بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله .

وفي خضم ذلك يحصل صراع نفسي داخلي بين الأهواء التي تدفعه إلى الإبقاء على الموروث ولو كان خطلا ، وبين الخطاب العقلي الموضوعي الذي يحاول نقد الموجود وبلوغ الصواب ، وهذا فيه إمعان في إقامة الحجة ؛ ومنهج الاستفهام في الآية يجلِّي لنا التصور الإسلامي لمنهجية التفكير المنفتحة على النقد والبحث عن الحقيقة ، حيث أورد العلة وهي شمول علم الله تعالى ؛ فالمناكفة غير واردة بل غير مجدية من الأساس .

(٣) نسق الشرط :

الشرط في اللغة العربية يتكون من جملتين ترتبط كل منهما بالأخرى ارتباطا وثيقا وتكون أحداهما شرطا في حدوث الأخرى أو سببا له [٣] .

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، ص ٥٩ ، تحقيق : د / محمد رضوان الداية ، الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، دمشق ، ط : الأولى ١٤١٠هـ .

(٢) صفوة التفاسير ، المؤلف : محمد علي الصابوني : ٣ / ٢٢١ ، الناشر : دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط : الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .

(٣) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه ، د / مهدي المخزومي ، ص ٢٨٤ ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط : الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

وقد ورد أسلوب الشرط في السورة الكريمة ليعالج قضيتين يسيران في نفس المسار ، وإن شئت قلت معنيين في علاقة سببية واضحة ، الفكرة الأولى فكرة التثبت من الأخبار الواردة ، والثانية فكرة الاصلاح بين المسلمين .

(١) <u>التثبت من الأخبار :</u>

وبناء على التصور القرآني للعالم المسلم وأنه عالم له منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدرها ، قبل الحكم عليها . يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله ، في غير ما تقدم بين يديه ، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به : جاء قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } .

ولما كان رسول الله – ﷺ – والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد[١] إلا في الندرة . قيل : إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة ، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور " [٢] .

فإن قيل : لم لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم الفاسق ؟

يقول القاسمي : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفارا للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حدّ يفضي إلى القتال . ألا ترى أن

---

(١) قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ لِيُصدّقهم، فَتَلَقَّوْهُ بِالصَّدَقَةِ، فَرَجَعَ فَقَالَ: إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَدْ جَمَعَتْ لَكَ لِتُقَاتِلَكَ – زَادَ قَتَادَةُ: وَإِنَّهُمْ قَدِ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ – فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَثَبَّتَ وَلَا يَعْجَلَ. فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَاهُمْ لَيْلًا فَبَعَثَ عُيُونَهُ، فَلَمَّا جَاءُوا أَخْبَرُوا خَالِدًا أَنَّهُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِالْإِسْلَامِ، وَسَمِعُوا أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَتَاهُمْ خَالِدٌ فَرَأَى الَّذِي يُعْجِبُهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ. قَالَ قَتَادَةُ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ: " التَّبيُّن مِنَ اللَّهِ، والعَجَلَة مِنَ الشَّيْطَانِ ".
ينظر : تفسير ابن كثير : ٧ / ٣٧٢ . دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط : الثانية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .

(٢) الكشاف للزمخشري : ٤ / ٣٦٠ ، ناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٧ هـ.

الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق ، آية الاقتتال فقال : { وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } ؟ [١] .

(٢) *الإصلاح بين المسلمين :*

ولما كان الأصل أن لا يقع خلاف من الأساس يقتضي الأمر بالإصلاح، ولكن هناك احتمال بوقوعه، وإنما فقط إقرار حالة حياتية قد تقع، قال تعالى : { وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا } .

ونلاحظ أن النظم في الآيتين الكريمتين استخدم (إن) المستخدمة في الندرة والمشكوك فيه للاحتياط والاحتراز ، وعبر بأداة الشك إيذاناً بقلة الفاسق فيهم وقلة مجيئه إليهم بخبر له وقع في الأولى ، فقال: { إِنْ جَاءَكُمْ }، وتنبيها على نبذ الخلاف وضعف احتمال وقوعه على الأولى بين المسلمين، فقال : { وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } في الثانية " [٢].

خلافا لـ (إذا) على سبيل المثال ، لأن الأخيرة تستعمل في كلام العرب للمقطوع بحصوله كما في قوله: { إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ } [٣] ولابد أن يحضر الموت ، وقوله : { فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ } [٤] ولا بد للأشهر الحرم من أن تنسلخ، وقوله تعالى : { وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت } [٥] ولا بد للشمس من أن تطلع وكقوله : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ } [٦] ولا بد للصلاة أن تنقضي .

كما تستخدم للكثير الحصول كما في قوله تعالى : { وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } [٧].

ولو جاءت (إذا) و(إن) في الآية الواحدة تستعمل (إذا) للكثير و(إن)

---

(١) محاسن التأويل ، المؤلف : محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) : ٨ / ٥٤٧ وما بعدها ، المحقق : محمد باسل عيون السود ، الناشر : دار الكتب العلميه ، بيروت ، ط : الأولى ١٤١٨هـ .

(٢) نظم الدرر للبقاعى : ١٨ / ٣٦٤ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .

(٣) سورة المائدة – آية ١٠٦ .

(٤) سورة التوبة – آية ٥ .

(٥) سورة الكهف – آية ١٧ .

(٦) سورة الجمعة – آية ١٠ .

(٧) سورة النساء – آية ٨٦ .

للأقلّ كما في آية الوضوء في سورة المائدة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [١] القيام إلى الصلاة كثيرة الحصول فجاء بـ (إذا) أما كون الإنسان مريضاً أو مسافراً أو جنباً فهو أقلّ لذا جاء بـ (إن) .

أما (إن) فستعمل لما قد يقع ولما هو محتمل حدوثه أو مشكوك فيه أو نادر أو مستحيل كما في قوله تعالى : { أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا } [٢] هنا احتمال وافتراض ، و { وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا } [٣] لم يقع ولكنه احتمال وكذلك في سورة الأعراف : { انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ } [٤] افتراض واحتمال وقوعه ، وهكذا .

---

(١) سورة المائدة – آية ٦ .

(٢) سورة القصص – آية ٧١ .

(٣) سورة الطور – آية ٤٤ .

(٤) سورة الأعراف – آية ١٤٣ .

المبحث الثالث

المستوى التركيبي

من البديهي كون التركيب عنصراً مهماً وفاعلاً في عملية الإبداع ؛ إذ يمثل الأخير حالة رصد قائمة على التفاعل الإيجابي بين مكونات اللغة ، والدرس الأسلوبي يهتم بالتركيب فضلاً عن اهتمامه بمعرفة الأبعاد الدلالية لهذا التركيب ، فالنص لا يجرد من قيمته الدلالية عند الحديث عن ميزاته التركيبية ، بل يتضافر فيه هذان العاملان ليشكلا بنية فنية ذات نسق جمالي ، وللاختيار والتوزيع أثره في تشكيل هذا المستوى ويجب أن يكون هذا الاختيار مخالفاً ومقصوداً في الوقت نفسه ، بمعنى أن يكون مخالفاً للمألوف لما اعتاده الناس وهذا ما يعرف بالعدول أو العدول بأمر الله تعالى ، الذي هو " خروج الكلام عن نسقه المألوف أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم ، لكنه يخدم النص بصورة أو بأخرى وبدرجات متفاوتة ويسمى أيضا العدول والانحراف .. [١] .

ويشترط فيه أن يكون مقصوداً من قبل الذات المبدعة لعرض أبنية مغايرة أو توليد علاقات تجاورية جديدة من شأنها أن تسهم في توليد الشاعرية المميزة بين ذات وأخرى ، والعدول بأمر الله تعالى والعدول يمكن أن يكون في الصيغ والبناء ، ويمكن أن يكون في العلاقة التجاورية ، على ما سيأتي .

أولا : العدول بأمر اللّه تعالى وبناء الصيغ :

(١) *العدول بأمر الله تعالى المعجمي :*

ويتمثل هذا العدول بأمر الله تعالى الدلالي في هذا المجال في الالفاظ التى تلتقي مع بعضها في علاقة شبه الترادف[٢] أو الترادف الجزئي[٣] إذ تشترك بعض الألفاظ في معنى أساسي عام، ثم تنفرد كل لفظة ببعض الخصوصيات التعبيرية أو

---

(١) أسلوب العدول بأمر الله تعالى في النص القرآني ، أحمد غالب التورى الخرشة ، ص ٥ ، رسالة دكتوراة ، جامعة مؤتة ٢٠٠٨م .

(٢) انظر : الكلمة دراسة لغوية معجمية ، حلمي خليل ، ص ١٣٣ ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩٥م .

(٣) انظر: علم الدلالة علم المعنى، محمد علي الخولي، ص ٩٤ ، دار الفلاح، عمان (د ط) ٢٠٠٠م.

الطاقات الايحائية التى تحول دون اتفاقه التام مع غيره من الألفاظ، فطرفا العدول بأمر الله تعالى في هذا المجال هما لفظان يشتركان في ما أطلق عليه علماء اللغة المعاصرون الدلالة المعجمية أو المركزية أو الاساسية، ويستقل كل منهما عن الآخر فيما يسمى عندهم الدلالة الهامشية أو السياقية أو الظلال والألوان العاطفية والجمالية للمعنى[١] بمعنى أن المساحة الدلالية التى يتبوأها اللفظ الأول تكاد تكون مع المساحة الدلالية التى يتبوأها اللفظ الثاني، لكن المطابقة غير التامة هي التى تفضي الى اختصاص كل لفظ بمزيد معنى ، أو اختصاص كل واحد بملمح يكون مميزا له ، ودليلا عليه . الأمر الذي يجعل العدول بأمر الله تعالى عن أحد الألفاظ إلى رديفه في الدلالة العامة ، يعود الى ملائمة كل منهما – بدلالته الخاصة – للموقع الذي أوثر فيه من سياق الكلام. وهذا يشمل الأسماء والأفعال والحروف والإفراد والجمع والتذكير والتأنيث.

وهاك بعض المواطن في السورة التى يتمثل فيها هذا العدول بأمر الله تعالى :

العدول بأمر الله تعالى في الأسماء :

ثمة فروق دلالية بين المترادفات اللغوية الأسمية في السورة الكريمة اقتضى السياق المفاضلة بينها على النحو الذي ترتب عليه اختيار اسم دون آخر يشترك معه في المعنى أو يقترب ، ومن هذه الشواهد التى عدل في النسق الكريم من استخدام اسم الى آخر لغاية مخصوصة :

وتأمل قوله : { لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } في مقام الاقتداء بالكتاب والسنة ثم قال : { لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ } الأولى (الرسول) والثانية (النبي) فكأنه جمع له المقامين معنى النبوة والرسالة تعديدا للنعم في الحالين ، وقريب منه في المضاف إلى الخاص : { يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ } ولم

---

(١) علم الدلالة العربي دراسة تأصيلية تاريخية نقدية ، فايز الداية ، ص ٢١٦ ، دار الفكر دمشق ، ط : الأولى ١٩٨٥م ، وانظر : دلالة الالفاظ ، إبراهيم أنيس ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط : الثانية ١٩٦٣م .

يقل: " يا نساء الرسول " لما قصد اختصاصهن عن بقية الأمة [١].

ولما كان السياق للنهي عن التقديم والتقدم، وكان مقتضى الرسالة إنفاذ الأوامر والنواهي عن الملك من غير أن يكون من المرسل إليهم اعتراض أصلاً، وبذلك استحق أن لا يتكلم بحضرته في مهم ولا يفعل مهم إلا بإذنه، لأن العبيد لما لهم من النقص لا استقلال لهم بشيء أصلاً، عبر بالرسول دون النبي بعد أن ذكر اسمه تعالى الأعظم زيادة في تصوير التعظيم فقال: { ورسوله } أي الذي عظمته ظاهرة جداً، ولذلك قرن اسمه باسمه وذكره بذكره، فهو تمهيد لما يأتي من تعظيمه

فالتعبير بذلك إشارة إلى أن النفس إذا خليت وفطرتها الأولى ، امتلأت بمجرد رؤيته هيبة منه، وإجلالاً له، فلا يفعل أحد غير ذلك إلا بتشجيع منه لنفسه وتكليفها ضد ما تدعو إليه الفطرة الأولى القويمة، فالمعنى : لا تكونوا متقدمين في شيء من الأشياء والله يقول الحق ويهدي السبيل، ورسول الله – ﷺ – يبلغ عنه لا ينطق عن الهوى، فعلى الغير الاقتداء والاتباع، لا الابتداء والابتداع، سواء كان الرسول – ﷺ – غائباً أو حاضراً بموت أو غيره.

فإن آثاره كعينه ، فمن بذل الجهد فيها هدي للأصلح ، { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }[٢]. فذلك أن توحيد مصدري التلقي يتجلى في استخدام هذا الأسلوب : الدال على قوّة الاختصاص ، ولما كان رسول الله – ﷺ – من الله بالمكان الذي لا يخفى : سلك له ذلك المسلك وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة : والمعنى: أن لا تقطعوا أمراً إلا بعدما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل. وإما مقتدين برسول الله – ﷺ –. وهو تطبيق لقاعدة عامة تكررت في القرآن الكريم عمادها مفهوم عام في الاتباع والاقتداء وهو قوله تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [٣]، { وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا

---

(١) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) : ٢ / ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط : الأولى ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركائه ، ودار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

(٢) نظم الدرر : ١٨ / ٣٥٢ .

(٣) سورة الحشر – آية ٧ .

مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً } [١].

وفي هذا " تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتولوه من رفع أصواتهم فوق صوته : لأنّ من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوي : كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ، ويخافت لديه بالكلام [٢] .

ومما دق وخفي وجهه ما جاء في قوله تعالى : { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ... } فالملاحظ في هذا السياق العدول بأمر الله تعالى من (الخبر) إلى (النبأ) والمفردتان على نفس الوزن ، لأن النبأ كما يقول أهل اللغة أهم من الخبر وأعظم منه وفيه فائدة مهمة .

والنبأ في اللغة : هو الظهور ، أي : الخبر الذي له شأن عظيم ، ومنه اشتقاق النبوة، لأن النبي مخبر عن الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى : { نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ } وقوله: { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ } وقوله تعالى: { عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ }، { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ }[٣].

فوصفه بالعظمة وصف كاشف عن حقيقته، وقال الراغب: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن . ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء وحق الخبر الذي قال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب كالمتواتر ، وخبر الله – ﷻ – وخبر النبي – ﷺ – [٤].

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة (خبر) مفردة في موطنين في قصة موسى – عليه السلام – : { قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ

---

(١) سورة الأحزاب – آية ٣٦ .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: ٤ /٣٥٢ ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٣) سورة النمل – آية ٢٢ .

(٤) الفروق اللغوية للعسكري : ١/ ٥٢٩ .

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [١] ، { إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [٢] .

وفي أخبار الماضين والرسل استعمل القرآن (نبأ) : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ } [٣] والصيغة الفعلية للنبأ (أنبأ) أقوى أيضاً منها للخبر (أخبر) { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا } [٤].

وقد يجيء العدول بأمر الله تعالى عن اسم لآخر فيه زيادة مبنى بحرف؛ تأكيدا على المبالغة في المعنى ، على نحو ما جاء في قوله تعالى : { وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } .

وهي صورة من صور العدول في اللفظ حيث ورد لفظ (الفسوق) لا (الفسق) والقرآن الكريم من أسرار نظمه أن يفرق في الاستعمال بين الفسق والفسوق، ليس في اللغة، وإنما هذا التفريق من خصوصية الاستعمال في القرآن، كما يفرق بين الخسر والخسران والخسار ويفرق بين المغفرة والغفران ويفرق بين الفسق والفسوق.

والفسوق من فسقت الرُطَبة خرجت من قشرتها فهو عامّ ومطلق الخروج والتجاوز ، قال تعالى : { الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ } [٥] ، إذن الفسوق أعمّ كأنه لما كان البناء أطول (فسوق) من (فسق) جعله أوسع يعني ناسب بين بناء الكلمة والدلالة .

لكن الملاحظ أن الفسق ورد في سياق الحديث عن الأطعمة وخاصة في الذبائح ؛ فلم ترد كلمة الفسق إلا في الذبائح : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ

---

(١) سورة القصص – آية ٢٩ .
(٢) سورة النمل – آية ٧ .
(٣) سورة يونس – آية ٧١ .
(٤) سورة الكهف – آية ١٠٣ .
(٥) سورة البقرة – آية ١٩٧ .

وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ } [١] ومنه أيضا قوله : {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}[٢] { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } [٣] .

ولنتوقف أمام صورة أخرى من صور العدول بأمر الله تعالى الصرفي ، وذلك في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ } فالآية ذكرت كلمة (ميت) بتسمين الياء ، وهي تقال لمن مات فعلاً كما هو واضح ، ولذا جاء في القرآن الكريم تحريم أكل لحم الميتة بتسكين الياء وقد تكون حقيقة أو مجازاً . أما الميّت فقد يكون لمن مات أو من سيموت بمعنى من مآله إلى الموت حتماً كما في قوله تعالى في سورة الزمر : { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ } .

وتتعدد صور العدول بأمر الله تعالى في التعبير بصيغة دون أخرى في السورة الكريمة ، وقد تتفق الصيغتان في الوزن والعدد، والمعنى مختلف وبينهما عموم وخصوص، على نحو ما جاء في التعبير بلفظة (الظالمون) بدلا من (الفاسقون) على القياس في المعنى في قوله تعالى: { وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ } لم يقل الفاسقون، مع أنه معصية وفسق ولكن جاء بالوصف الأخص .

يقول علماء اللغة : إن الظلم لغة : وضع الشيء في غير محله ، فإذا جاء إنسان وظلم آخر وأخذ ماله ووضعه في غير موضعه ، كيد الغاصب والأصل أن يكون في يد مالكه ؛ فقد ظلمه فكذلك هؤلاء جميعاً، فمن سخر من إنسان فقد وضع السخرية في غير موضعها ؛ لأنه سخر من شخص عسى أن يكون خيراً منه ، فإذا كان خيراً منه فلا موضع للسخرية وهو ظلم له ، وإذا لمز إنساناً بعينه بعيب فيه أيضاً فقد يكون ظلمه؛ لأن هذا العيب لم يأت به هو وإنما الشخص اللامز هو الذي

---

(١) سورة المائدة – آية ٣ .

(٢) سورة الأنعام – آية ١٤٥ .

(٣) سورة الأنعام – آية ١٢١ .

أشهره ، فهو ظالم في نقله إلى الآخرين، ومثله التنابز بالألقاب؛فمن نبز هو الذي وضع هذا اللقب في غير موضعه؛ لأن صاحبه يكرهه ويتبرأ منه، لكنه لصق به .

إذاً : { وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ }، فالظلم درجات ، أعلاها الشرك ، كما قال لقمان لابنه : { وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [١] وكذلك الإنسان يظلم نفسه بالمعصية ، وبالمكروه .. إلى غير ذلك .

كما تتجلى هذه الظاهرة في الاقتصار على ذكر (الحجرات) جمع (حجرة) على وزن فُعلة بضم الفاء وسكون العين ،وهي القطعة من الأرض المحجورة أي الممنوعة عن الدخول فيها بحائط وهي اسم السورة الكريمة – لا (البيوت) كما في قوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... } وإنما ذكر الحجرات دون البيوت لأن البيت كان بيتاً واحداً مقسماً إلى حجرات تسع [٢] ولا الغرف جمع غرفة كذلك .

قال الراغب في الأصفهاني في المفردات : " والغُرفة : عُلِّيَّةٌ من البناء، وسميت منازل الجنة غرفاً " [٣] .

وقال البغوي في تفسيره : " والغرفة : كل بناء مرتفع عال " [٤] .

وقال ابن عاشور في تفسيره : " والغرفة : البيت المعتلي يصعد إليه بدرج ، وهو أعز منزلاً من البيت الأرضي " [٥] .

وبذلك يظهر الفرق بين الحجرة والغرفة ، فالحجرة سميت لأنها تمنع من بداخلها ، من (حجَر) أي منع. أو تحجز بين من هم بداخلها ومن هم بخارجها، وتكون في سفل ، فهي سهلة الغشيان من كل أحد ، وسميت بيوت النبي الكريم – ﷺ –

---

(١) سورة لقمان – آية ١٣ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٩ / ٢٢٧ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني : ١/ ٦٠٥ ، ت / صفوان عدنان الداودي ، الناشر: دار القلم ، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، ط: الأولى ١٤١٢ هـ .

(٤) مختصر تفسير البغوي ، المؤلف : عبد الله بن أحمد بن علي الزيد : ٥ / ٦٧٥ ، الناشر : دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط : الأولى ١٤١٦هـ .

(٥) التحرير والتنوير : ١٩ / ٨٤ .

حجرات ، لأنها أجزاء منه ، وكانت تسعا ، وكانت في سفل .

وسميت الغرفة لأن من فيها ينتخب ويختار ، ليرفع إليها ، وتكون في علٍ ، فهي عسرة الغشيان، فلا يدخلها كل أحد . وسمى الله بها مساكن الجنان { أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا } (١) ، { وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ } (٢).

العدول بين الاسم والفعل :

وعلى خلفية أن الفعل يدل على التجدد والحدوث والاسم يدل على الثبوت والاستقرار ، هذا الفرق الدلالي بين الاسم والفعل ، يهدينا الى معرفة سر العدول بأمر الله تعالى في اصطفاء لفظ " آمنوا " على هذا النمط – والذي تكرر عدة مرات في السورة الكريمة – حيث جاء فعلًا – إشارة أخرى إلى أن إيمانهم لا يزال فعلًا ، وأنه ما يزال فيهم بقية من غفلة، وليدخل فيه عموم من دخلوا في الإيمان، وليس خصوص المؤمنين ؛ لأنه مما لا شك فيه أن هناك فرقًا بين أن يقال : { يا أيها المؤمنون } و { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ فالمؤمنون أعلى منزلة، وأكثر إيمانًا من الذين آمنوا؛ ذلك لأن الإيمان في المؤمنين صار اسمًا لهم، وصفة ثابتة، أما الذين آمنوا؛ فالإيمان لديهم لا يزال فعلًا، ولم يرق إلى مرحلة الثبوت ، وفرق بين هذا وذاك ، وعلى كلٍّ ، فإن النداء عليهم تشريف لهم بتعريفهم بخير صفاتهم.

وزد على ذلك أن النداء عليهم صادر عن الحق – ﷻ – وليس هناك وسيط بينه وبينهم، وفي ذلك أيضا من التشريف ما فيه وهذا التكليف والتذكير، والتشريف المحتَضَن في رحم النظم متناسق أيما تناسق مع ما هو آت من بعد .

ولَم يَأتِ في القرآنِ الكَريمِ نِداءُ " المؤمنينَ " إلا في آيَةٍ وَاحِدَةٍ في سورَةِ " النور " حَيثُ يَقولُ اللهُ تَعالَى : { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ } (٣).

أمّا { الَّذِينَ آمَنُوا } فإنَّ الإيمانَ ما يَزالُ فِعلاً مِن أَفعالِهِم، فَيُحتَمَلُ أَنْ يَزولَ وأَنْ

---

(١) سورة الفرقان – آية ٧٥ .

(٢) سورة سبأ – آية ٣٧ .

(٣) سورة النور – آية ٣١ .

يَحولَ ، فَكانوا بِحاجَةٍ إلَى الإكثارِ مِن أَمرِهِم ومِن نَهْيِهِم [١] .

ونخلص من كل ذلك أن هذا النداء يحمل عدة معانٍ :

١- عموميته ؛ حيث يدخل فيه القريب والبعيد.

٢- تذكير المنادى بما التزم به من إيمان؛ ليكون دافعًا له إلى التسليم والطاعة.

٣- الإلماح إلى نقص إيمانهم ؛ فما زالوا يُؤمرون ويُنهون؛ ففي التزامهم إكمال لهذا الإيمان، وإتمام لهذا البناء .

٤- إرفاق كل ذلك بالتشريف، والتقدير، فهم موصولون بالله تعالى، لمباشرته ندائهم. تلك بعض المعاني الملحوظة من خلال هذا النداء .

وفي سياق متصل نجد صورة من صور الربط في الأسلوب بين افتتاحية النداء بأسلوب النهي عن الفعل وبين ختام الآية يتجلي هذا الرَّبط بين السُّلوك الذي لا يستقيم مع شرع الله – ﷻ – وبين أُسلوب الترهيب ، وبين التهديد في خِتام الآية في قولِه – تعالى – : { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

ففي الآية اشارة إلى أن التقدم قد يكون بالقول لقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } لأنه قد يقدم كلام فلان وفلان على كلام الله ورسوله – ﷺ – وقد يكون التقدم بالفعل لقوله : عَلِيمٌ ؟ على ما مضى من تفسير عليم بأفعالكم مثل أن الله يأمرنا أن لا نتقدم رمضان بيوم أو يومين فيقول: أنا أقدم يوماً احتياطاً لهذه العبادة .

العدول في الأفعال :

ويتجلى هذا الأسلوب في العدول بأمر الله تعالى من صيغة فعلية إلى صيغة أخرى لغرض دلالي استدعاه السياق العام ، كما في استعمال الفعل (جاء) بدلا من (أتى) الوارد في قوله تعالى في شأن خبر الفاسق : { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ... } الآية .

فلشناعة الأمر الذي قد يجئ به الفاسق وخطره على سلامة المجتمع استعمل القرآن الكريم لفظ (جاء) الذي يستعمل من الناحية اللغوية: لما فيه صعوبة ومشقة

---

(١) شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية ، د / محمود توفيق محمد سعد ، أستاذ البلاغة والنقد ورئيس القسم ، في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر الشريف ، ص ٣٥ وما بعدها ، ط : الأولي ١٤٢٢هـ ، شبين الكوم .

، أو لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى) التي تستعمل للمجيء بسهولة ويسر ، ومنها (الميتاء) وهي الطريق المسلوكة [١] ولذلك يكاد يكون هذا طابع عام في القرآن الكريم .

وللتدليل على ذلك قوله تعالى في سورة النحل : { أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [٢] وقوله : { ولقد أرسلنا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إلا بإذن اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وخسر هنالك الْمُبْطِلُونَ } [٣] . هنا أشقّ لأن فيه قضاء وخسران وعقاب ، وكذلك في قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [٤].

وقوله : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فصبروا على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مبدل لكلمات اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [٥] تكذيب الرسل شيء معهود ، لكن الاستيئاس هذا شيء عظيم أن يصل الرسول إلى هذه الدرجة فهذا أمر شاق؛ لذا وردت كلمة (جاءهم) في الآية الأولى .. أما في الثانية فالتكذيب هو أمر طبيعي أن يُكذّب الرسل لذا وردت (أتاهم) وليس (جاءهم).

وقد لا يكون بين اللفظين ترادف ، ولكن تلازم أدى مفاد الترادف بأبلغ منه كالعلاقة بين التبين والتثبت، وقد تواترت القراءات بصحتهما في قوله تعالى: { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا } .

إن كلتا القراءتين صحيحة متواترة عن النبي – ﷺ – فقراءة (فَتَبَيَّنُوا) لنافع وابن كثير وأبي عمر وابن عامر وعاصم وأبي جعفر ويعقوب الحضرمي وقراءة (فتثبتوا) لحمزة والكسائي وخلف العاشر .

فإن التثبت منهج علمي ينتهي بنتيجة التبين ، ومن لم يتبين لم يتثبت بمنهج

---

(١) لسان العرب (أتى) : ٢ / ٥٨٨ ، ط : دار صادر ، بيروت ، ط : الأولى .

(٢) سورة النحل – آية ١ .

(٣) سورة غافر – آية ٧٨ .

(٤) سورة يوسف – آية ١١٠ .

(٥) سورة الأنعام – آية ٣٤ .

سليم ، وعليه فمن تثبت بمنهج سليم وفق للتبين الحقيقي باللازم فهذه القراءة غاية لقراءة حمزة والكسائي بالمثلثة ثم المثناة الفوقية [١] .

حيث أصلت المبدأ من حيث واجب التحري في الدين عند المستجدات بقوله تعالى : { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } [٢] .

والتأصيل جاء بملخص سنته الفعلية – ﷺ – ، مع الأخبار التي تنقل إليه وما يشار إليه يفعله بناء عليها بالتثبت والتبين المستلزمين لبعضهما من منهج ونتيجة تابعة للمنهج ، فكان منهجه – ﷺ – تيسيرا على الأمة إذ لو نهض لكل ما يقال قبل التزام المنهج والتحقق من النتيجة لوقع المجتمع في العنت والمشقة .

كما تتجلى هذه الظاهرة في الدقة الظرفية للفظ وظلاله الموحية بقرب الحدث وارتباطه بالفاعل في سياق المدح والثناء عقب التحذير والاحتياط ، ومن شواهده في السورة التعبير بـ (تصبحوا) بدلا من (تصيروا) على ما بينهما من معنى التحول والتغيير من حالة إلى أخرى في قوله تعالي : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } .

ولما كان الإنسان إذا وضع شيئاً في غير موضعه جديراً بالندم ، سبب عن ذلك قوله : { فَتُصْبِحُوا } أي فتصيروا، ولكنه عبر بذلك لأن أشنع الندم ما استقبل الإنسان صباحاً وقت انتباهه وفراغه وإقباله على لذاته { عَلَى مَا فَعَلْتُمْ } أي من إصابتهم { نَادِمِينَ } أي عريقين في الأسف على ما فات مما يوقع الله في نفوسكم من أمور ترجف القلوب وتخور الطباع ، وتلك سنته في كل باطل، فإنه لكونه مزلزلاً في نفسه لا ينشأ عنه إلا الزلزال والندم على ما وقع من تمني أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام بما تدور مادته عليه مما يرشد إليه مدن ودمن[٣] .

وفيه أيضا مدح للمؤمنين " أي لستم ممن إذا فعلوا سيئة لا يتلفتون إليها ، بل

---

(١) نظم الدرر : ١٨ / ٣٦٤ .

(٢) سورة الحجرات – آية ٧ .

(٣) نظم الدرر : ٧ / ٢٧٧

تصبحون نادمين " [١] .

وتتجلى دقة الاختيار بين الألفاظ وحسن التوظيف للمختار في التعبير بـ { اجْتَنِبُوا } بدل (اتركوا) أو (لا تظنوا)، في سياق التنفير من سوء الظن بلا بينة أو قرينة، وهو التعبير الغالب في الحديث عن معنى التنفير في القرآن الكريم، قال في الخمر : { فَاجْتَنِبُوهُ } أبلغ في الزجر من اتركوه ، أو لا تشربوه ؛ لأن (تتركوه) قد يتركه وهو جنبه محتفظ به .. لكن { فَاجْتَنِبُوهُ }. أي : جنبوه عنكم بعيداً ، وكونوا عنه عن بُعْد ، فإذا كان عنك بعيداً فلا أنت شارب له ولا محتفظ به . وهنا : { اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ } ، أي : كونوا على جانب من البعد من كثير من الظن .

وقال ابن حجر : ولما بدئت الثانية بالأمر في : { اجْتَنِبُوا } ختمت به في : { فاتقوا الله } وكان حكمة ذكر التهديد الشديد في الأولى فقط؛ بقوله تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَتُبْ } أن ما فيها أفحش ، لأنه إيذاء في الحضرة بالسخرية أو اللمز أو النبز، بخلافه في الآية الثانية؛ فإنه أمر خفي، إذ كل من الظن والتجسس والغيبة يقتضي الإخفاء، وعدم العلم به غالباً [٢].

وقد يكون العدول من فعل لآخر ، في الظاهر مخالفا لنظم الكلام وما يقتضيه العطف من اقتران الفعلين إيجابا أو سلبا ، كما في قوله تعالى : { قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَاكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا } والذي يقتضه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا . أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم .

يقول صاحب الكشاف : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلاً، ودفع ما انتحلوه، فقيل : قل لم تؤمنوا . وروعى في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه ، فلم يقل: كذبتم ، ووضع { لَّمْ تُؤْمِنُواْ } الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه ، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع (كذبتم) في قوله في صفة المخلصين { أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون ، ورب تعريض لا يقاومه

---

(١) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي : ٢٨ / ١٠٠ ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : الثالثة ١٤٢٠ هـ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل محمود الألوسي : ٢٦ / ١٦١ ، دار إحياء التراث ، بيروت .

التصريح ، واستغنى بالجملة التي هي لم : { تُؤْمِنُواْ } عن أن يقال: لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهي عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل : ولكن أسلمتم ، ليكون خارجاً مخرج الزعم والدعوى ، كما كان قولهم : { مِنَ } كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم ، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به . فإن قلت : قوله : { وَلَمَّا يَدْخُلِ الاْيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ } بعد قوله تعالى : { قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ } يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة. قلت: ليس كذلك ، فإن فائدة قوله : { لَّمْ تُؤْمِنُواْ } هو تكذيب دعواهم ، وقوله : { وَلَمَّا يَدْخُلِ الاْيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ } " [١] .

العدول بأمر الله تعالى في مستوى الفعل :

ونقصد بذلك اختلاف زمنية الفعل من حيث الماضي والمضارع كما في قوله: { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } فاستخدم النسق كلمة (يُنَادُونَكَ) مع أن النداء وقع قبل نزول الآية فالتعبير بصيغة المضارع في {ينادونك} لاستحضار حالة ندائهم [٢] .

ومن صور هذا العدول بأمر الله تعالى في مستوى زمنية الفعل التعبير بـ { يُطِيعُكُمْ } دون { أطاعكم } : للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه. وأنه كلما عنّ لهم رأى في أمر كان معمولاً عليه ، بدليل قوله : { فِى كَثِيرٍ مّنَ الاْمْرِ } كقولك : فلان يقري الضيف ويحمي الحريم ، تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّاً . [٣] .

(٢) العدول بأمر الله تعالى في العدد :

وضع علماء العربية قواعد عامة لصيغ المثنى والجمع ، لكن العربية بما امتازت به من مرونة واتساع قد تطلق اللفظ ويراد به معنى آخر لوجود قرينة ، وحين نستعرض إمكانات صور العدول بأمر الله تعالى العددي نجد أمامنا عدة صور في السورة الكريمة .

---

(١) الكشاف ٣٧٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٧ .

(٣) الكشاف ٣٦٣ .

وأولى هذه الصور ما نجده في التعبير بصيغة الجمع في قوله : { لا يَسْخَرْ قَومٌ }، ومقتضى الظاهر أن الذي سيسخر هو فرد واحد ، ولكن الله سبحانه أسند السخرية المنهي عنها إلى (قوم) ، والقوم هم الجماعة ، وهو لفظ خاص بجماعة الرجال ، و قد قالوا : إن مادة قوم والقيام والقوامة ممثلة في الرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون بالواجبات [١] ، كما قال الله : { الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ } [٢] فوصف الرجال بالقوامة؛ ولذا كان لفظ القوم خاصاً بالرجال فقط ، ولذا عطف عليه القسيم الثاني وهم النساء ، فقال : { وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ } فكون الإسناد هنا لجماعة أو لقوم وهم عدد ، مع أن العادة جارية بأن السخرية لا تنشأ ولا توجد إلا من فرد واحد ؛ فلماذا جاء اللفظ بالقوم – وهم الجماعة – نيابة على الواحد ؟

ولكنا إذا دققنا ، لوجدنا أنه سبحانه قد ذكر قبلا : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... } فهنا طائفة متقاتلة مع طائفة أخرى ، والطائفة هي الجماعة، والجماعة هي القوم ، ولما انتهى القتال وجاء الإصلاح وتدخل المؤمنون قال : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } ، ثم جاء تصفية ما عساه أن يكون من بقايا القتال بين الطائفتين، فقد تكون طائفة أقوى من الأخرى فتفخر عليها وتسخر من الطرف الثاني، فجاء التعبير بـ (قوم) بناء على أنه تقدم عندنا طائفتان ، كما أن اشتراك الراضي عن الفعل في الأثم يدخل كفرد في صيغة الجمع الواردة .

لو أن شخصاً من إحدى الطائفتين سخر بالطائفة الثانية ؛ فإن إسناد السخرية يكون للطائفة التي منها الشخص الذي سخر ، ويكون الإسناد للمجموع لا للفرد فقط ؛ لأن الواحد يتكلم باسم جماعته ، ومن هنا لو أن البعض لم يسخر ولم يرض لكنه مشارك بالسكوت كما قيل : وسامع الذم شريك لقائله ومطعم المأكول شريك الآكل الذي سمع ما ذم إنساناً ، لكنه سمع ورضي وتلذذ بذلك ، كما قيل : لم آمر بها ولم تسؤني ؛ فهو مشارك للذي سب ، أو ذم غيره ، وعليه فهو مشترك في الإثم ، وهكذا هنا الجماعة الواحدة ؛ فالذي يتكلم منهم ويسخر من الطائفة الثانية كأنه تكلم باسم

---

(١) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، الفيروز ابادي : ٤ / ٤٠٩ ، تحقيق : محمد على النجار ، ط : دار الفكر ، ط : الثانية ١٩٩٦م .

(٢) سورة النساء – آية ٣٤ .

الجميع، والجميع يتحمل الإثم ؛ لأنه سكت ورضي . وهكذا أي إنسان ذكر إنساناً بسوء وعنده من إخوانه من لم يرد عليه ولم يمنعه؛ فمن رضي بذلك فهو مشترك في الإثم معه بسكوته عنه وعدم نهيه عن فعله، ولذا جاء في بني إسرائيل : { كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [١] .

وقيل لأن السخرية عادة تكون بحضرة ناس، قال معبراً بما يفهم أن من شارك أو رضي أو سكت وهو قادر فهو ساخر مشارك للقائل: { قوم } أي ناس فيهم قوة المحاولة ، وفي التعبير بذلك هز إلى قيام الإنسان على نفسه وكفها عما تريده من النقائص ؛ شكراً لما أعطاه الله من القوة : { من قوم } فإن ذلك يوجب الشر لأن أضعف الناس إذا حرك للانتقاص قوي بما يثور عنده من حظ النفس [٢] واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع [٣] وربما يعن لشخص أن يسأل : لماذا لم يأت التعبير الكريم على ذكر رجال يسخرون من نساء ، ولا قسم نساء يسخرن من رجال ؟ ربما لأن بين الرجل والمرأة بون شاسع، وكمال الرجل لا يجعله يضع نفسه في مقارنة مع امرأة ؛ لأنه ينظر نقائصها فلا يسخر منها، وكذلك المرأة مع الرجل ؛ لأنها ترى أن الرجل أعلى منزلة منها، فلا تضع نفسها في رفعة حتى أنها تسخر من الرجل ، فرجولته تغطي كل شيء ، ولذا جاء بالفريقين فقط: قوم من قوم، ونساء من نساء .

ومن صور العدول بأمر الله تعالى العددي أيضا التعبير بالمثنى دون الجمع ، ومن أظهر صوره في السورة الكريمة قوله : { وَإِنْ طَائِفَتَانِ ... بَيْنَهُمَا } فإن قيل: فلم خص الاثنان بالذكر (طائفتان) دون الجمع ؟ ذلك : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ؛ فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ؛ لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين [٤] .

فإن قيل: ما وجه قوله: { اقْتَتَلُواْ } والقياس اقتتلتا ، كما قرأ ابن أبي عبلة (أو

---

(١) سورة المائدة – آية ٧٩ .

(٢) نظم الدرر : ٧ / ٢٣٢ بتصرف ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .

(٣) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد ابن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ): ٥ / ١٧٧ ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٤) الكشاف ٣٦٩ .

اقتتلا) كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين ؟ يبدو أن ذلك : مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس [١] .

وقيل : لأن الطائفة فيها أفراد، القتال يحصل بين أفراد. طائفتين فيها رؤوس يبدأ القتال الأفراد يقتتلون وهم جمع كثير فجمع، { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } بين الطائفتين وليس بين فرد وفرد، الإصلاح بين زعماء الطائفتين وليس الإصلاح بين الأفراد، الإقتتال بين الأفراد والصلح بين أصحاب القرار كبير هذه الطائفة وكبير تلك .

(٣) العدول بأمر الله تعالى في الجنس :

سنحاول أن نعرض لما ورد في السورة الكريمة من مظاهر لأسلوب العدول بأمر الله تعالى الصرفي في صيغ التذكير والتأنيث، مبينين قدر استطاعتنا القيم الدلالية لهذا العدول بأمر الله تعالى .

وأول ما يستوقفنا في هذا الصدد هو دلالة التأنيث في قوله تعالى:{ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } .

بحسب القاعدة النحوية المعروفة أنه جائز باعتبار أن جمع التكسير يجوز تذكيره وتأنيثه. فإنَّنا نرى أنَّ الأسلوب القرآنيَّ لا يتعامل مع هذا الجواز تعاملاً عشوائيًّا وإنمَّا يراعي في ذلك السِّياق، بل يؤنّث الفعل عندما يكون الفاعل أكثر، وإذا كان أقل يُذكّر الفعل، فالنسق الكريم استخدم الفعل (قالت) مؤنثاً لأن الأعراب كُثُر . وكذلك في قوله تعالى : { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [٢] .

فهؤلاء مجموعة من الرسل ، أما في قوله تعالى : { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

---

(١) الكشاف ٣٦٧ .

(٢) سورة آل عمران – آية ١٨٣ .

يَفْتَرُونَ } [١] فالمذكورون هم جميع الرسل وهم أكثر من الأولى لذا جاء الفعل مؤنثاً .

وكذلك في قوله تعالى : { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }[٢]. ونسوة هن حاشية امرأة العزيز.

(٤) العدول في الحروف :

ولم تقتصر هذه الظاهرة على العدول بأمر الله تعالى بين صيغ الأسماء والأفعال بل تعدتها إلى الحروف كذلك، وذلك لتباين المعاني التى تحملها، سواء كان هذا التباين ظرفيا أو متعلَقا للأفعال من حيث تعديها من عدمه .

ومن ذلك استعمال (حتى) في قوله : { وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ } وهي من الحروف المشتركة بين الاسم والفعل ومختصة بالغاية المضروبة، ولم تستخدم (إلى) تقول : أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها : لم يجز ، أما (إلى) فهي عامّة في كل غاية ، فقد أفادت (حتى) بوضعها : أنّ خروج رسول الله – ﷺ – إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه [٣] .

ومن ذلك : معنى (ثم) في قوله : { ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } وهي التراخي ، وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان لأنه وصف فيه ، من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقن وانتفاء الريب، والجواب – كما يقول صاحب الكشاف – على طريقين:

أحدهما: أنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه ، أو نظر هو نظراً غير سديد ويسقط به على الشك ثم يستمرّ على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجاً ، فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات. ونظيره قوله: { ثُمَّ اسْتَقَامُواْ } [٤].

---

(١) سورة الاعراف – آية ٥٣ .

(٢) سورة يوسف – آية ٣٠ .

(٣) انظر : الكشاف ٣٦١ .

(٤) سورة فصلت – آية ٣٠ .

والثاني: أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الإيمان، تنبيهاً على مكانه؛ وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً [١] .

ومن صوره في تعدية الأفعال : لتضمنه نكتة بلاغية : تعدية فعلا " حبب " و " كره " بحرف (إلى) في قوله : { حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ } وقوله : { وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } وذلك لتضمينها معنى بلغ، أي بلغ إليكم حب الإيمان وكره الكفر، ولم يعد فعل "وزينه" بحرف (إلى) في قوله : { وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ } مثل فعلي " حبب " و" كره "، للإيماء إلى أنه لما رغبهم في الإيمان وكرههم الكفر امتثلوا فأحبوا الإيمان وزان في قلوبهم [٢] .

ثانيا : **الانحراف التركيبي وتحولات الرتبة** :

ونقصد به العدول بأمر الله تعالى النحوي أو ما يعرف بالعدول عن القواعد المألوفة ، وهذا الانحراف التركيبي يمثل تقنية أسلوبية يعتمدها المبدع لإثراء النص بالالتفاتات الدلالية والتي تكشف من خلال القراءة الدقيقة لبنية النص ونسيجه أهداف ومقاصد المبدع .

من صور العدول بأمر الله تعالى التركيبي في السورة :

(١) الحذف والذكر :

وهو من الظواهر الأسلوبية اللافتة النظر في القرآن الكريم ، وقد جرت عادة القرآن على الحذف ؛ فهو في مواضع يكون أبلغ من الذكر والعكس صحيح .

ومن صور الذكر في السورة الكريمة النص على النساء في هذا المقام مع أنهن يدخلن عادة في كافة الأحكام .

ولما كان إطلاق القوم لمن كان فيه أهلية المقاومة وهم الرجال، قال معبراً ما هو من النسوة بفتح النون أن ترك العمل: { وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء }[٣] والذي ينسحب على الرجال في هذا الأمر ينسحب على النساء بشكل أعمق، لأنهن يفقن الرجال

---

(١) الكشاف ٣٨٠ .

(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٩٨، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط: الأولى ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م .

(٣) نظم الدرر : ١٨ / ٣٧٦ .

غيرة من بعضهن، ومحافظة على مظهرهن، ومباهاة بجمالهن، وثرائهن وسلطانهن، ولذلك قال – تعالى – : { وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ } وهو إما أن يكون خصوصا بعد عموم : "قوم" ، إذا قصد بها عموم الجنسين ، فتفيد التنبيه على تفشي هذا الأمر في مجتمعات النساء لطول كلامهن وقصر صمتهن ، وهو مظنة السخرية واللمز ، فتكون هذه فائدة ، يقابلها احتمال أن يكون القوم المذكورون ابتداء : الرجال ، ثم عطف عليهم النساء : عطف مغايرة ، كما في قول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري ∴ أقوم آل حصن أم نساء

أراد : أرجال آل حصن أم نساء ، ويعضد هذا الاحتمال ما قرره العلماء من أن السياق إذا دار بين التأسيس والتوكيد ، فحمله على التأسيس أولى ، لأنه ينشئ معنى جديدا ، فذكر النساء بعد الرجال أفاد معنى جديدا لأن النساء غير الرجال بخلاف ذكرهن بعد عموم يشملهن ، فهن مذكورات ابتداء ضمنه ، ومخصوصات انتهاء بإفرادهن باسم لا يشاركهم الرجال فيه .

وكلا الأمرين محتمل ، لأن لكل منهما مرجحا . والخصوص بعد العموم ، والعموم بعد الخصوص من الأساليب التي تستحق العناية عند تحليل أي نص تحليلا بلاغيا .

ومن صور الذكر في السورة الكريمة ذكر المتعلق في قوله : { حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ... } .

يقول الزمخشري : فإن قلت : فأي فائدة في قوله : { إِلَيْهِمْ } ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم { لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } [1].

حذف المفعول :

ومنه حذف المفعول في قوله : { لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... } فنلاحظ أن النهي الوارد في الآية عن التقدم يتسع ليشمل كل ما يمكن أن يدخل في حيز المخالفة للنهي الصريح ، ولعل هذا هو السر في حذف المفعول " ليعم كل ما يصح

---

(١) الكشاف ٣٦١ .

تقديمه فيذهب الوهم كل مذهب [١] ، أو النهي عن التلبس بالفعل " ويجوز أن يكون حذفه من قصد إليه أصلاً، بل يكون النهي موجهاً إلى نفس التقدمة أي لا تتلبسوا بهذا الفعل [٢] على معنى : لا تفعلُوا التقديمَ فيكون تركَ المفعولِ للقصدِ إلى نفسِ الفعلِ منْ غيرِ اعتبارِ تعلقِه بأمرٍ منَ الأمورِ [٣] .

ولعل هذا يستقيم مع قراءة العامة: { لاَ تُقَدِّمُواْ } على ضمِّ التاءِ وفتح القافِ وتشديدِ الدالِ مكسورةً ، حيث إن هذه القراءة تحمل وجهين : أحدُهما: أنَّه متعدٍّ ، وحُذِفَ مفعولُه ، إمَّا اقتصاراً كقولهم : هو يعطي ويمنع ، { وَكُلُواْ واشربوا } [٤] ، وإمَّا اختصاراً للدلالةِ عليه أي : لا تُقَدِّموا ما لا يَصْلُحُ . والثاني : أنه لازمٌ نحو: وَجَّه وتَوَجَّه، ويَعْضُدُه قراءةُ ابنِ عباس والضَّحَّاك .

حذف الحرف :

ومنه صيغة التفعل في قوله: { لَا تقدموا ... } بفتح التاء والقاف والدال ، والأصل " لا تتقدموا " على قراءة .

ويجوز أن يكون من قدم – بالتشديد بمعنى أقدم وتقدم أي شجع نفسه على التقدم، ومنه مقدمة الجيش، وهم متقدموه، وأشار إلى تهجين ما نهوا عنه وتصوير شناعته، وإلى أنهم في { تَقَدَّمُوا } بالفتح في الثلاثة، والأصلُ: لا تَتَقَدَّمُوْا فحذَف إحدى التاءَيْن. وبعضُ المكِّيين " لا تَّقَدَّمُوْا " كذلك، إلاَّ أنَّه بتشديد التاء كتاءات البزي. والمتوصَّلُ إليه بحرفِ الجرِّ في هاتَيْن القراءتَيْن أيضاً محذوفٌ أي : لا تَتَقَدَّموا إلى أمرٍ من الأمور. وقُرِىء " لا تُقْدِموا " بضمِّ التاءِ وكسرِ الدالِ مِنْ أَقْدَمَ أي: لا تُقْدِموا على شيءٍ [٥].

ومن صورالعدول بأمر الله تعالى إيثار لفظ على آخر قد يترتب عليه حذف

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، المؤلف : إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي ابن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ): ١٨ / ٣٥١ ، الناشر: دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعى : ١٨ / ٣٥١ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٨ / ١١٥ .

(٤) سورة البقرة – آية ١٧٨ .

(٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، المؤلف : أبو العباس، شهاب الدين، السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) : ١٠ / ٥ ، المحقق الدكتور / أحمد محمد الخراط ، الناشر : دار القلم ، دمشق .

الحرف: ومن مظاهره في السورة إِيثَارُ حَتَّى فِي قَوْلِهِ : { حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ } دُونَ (إِلَى) لِأَجْلِ الْإِيجَازِ بِحَذْفِ حَرْفِ (أَنْ) فَإِنَّهُ مُلْتَزَمٌ حَذْفُهُ بَعْدَ حَتَّى بِخِلَافِهِ بَعْدَ (إِلَى) فَلَا يَجُوزُ حَذْفُهُ [١] .

ومن ذلك دلالة حذف الحرف على معنى معين لا يؤديه ذكره لاختلاف السياق الوارد فيه ، ويطالعنا في السورة قوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [٢] بدون الباء على حين جاءت فى سورة التوبة { بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ } [٣] بالباء .

ففي قضية الإيمان وردت (١٢) مرة ولم تدخل الباء على أي منها لم يرد (آمن بالله وبرسوله) وإنما وردت (بالله ورسوله) ، عدم دخول الباء يشير إلى أن الإيمان بالرسول نابع وهو امتداد إيماننا بالله أي أن ما بُعث به محمد – ﷺ – إنما هو من عند الله ، ولذلك لم تدخل الباء على كلمة (رسوله) لأنه لا فرق بين أن نؤمن بالله وبين أن نؤمن برسول الله – ﷺ – لهذا جمع الله تعالى بين لفظ الجلالة ورسوله بحرف الواو .

على صعيد آخر وجدنا أن حرف الباء قد دخلت على كلمة الرسول في قضية الكفر، قال تعالى : { وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ } [٤] وهنا دخول الباء ضروري لأن الكفر بالله مختلف عن الكفر برسول الله، فالكفار لم يؤمنوا بوجود إله واحد قادر على البعث والنشور ، وهذا كفرهم بالله أما كفرهم برسول الله ذلك أنهم كانوا يلقبون الرسول محمد – ﷺ – قبل أن يُبعث بالصادق الأمين وكان معروفاً بينهم بخلقه الكريم، فلما بُعث فيهم قالوا عنه ساحر أو مجنون : { وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ } [٥] { وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [٦] وهذا كفرهم برسول الله وبمعرفتهم له وفي هذا قال تعالى : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٧ .
(٢) سورة الحجرات – آية ١٥ .
(٣) سورة التوبة – آية ٥٤ .
(٤) سورة التوبة – آية ٥٤ .
(٥) سورة الصافات – آية ٣٦ .
(٦) سورة ص – آية ٤ .

لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ } [١].

(٢) *التقديم والتأخير :*

فهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفه [٢] والناظر في السّياق القرآني يجد هذا الأسلوب هو " مادة الإعجاز في كلام العرب كلّه، ليس من ذلك شيء إلّا وهو معجز، وليس من هذا شيء يمكن أن يكون معجزاً، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة [٣] .

ومن صور العدول بأمر الله تعالى الرتبي في السورة تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في قوله تعالى : { وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } .

لأن المال محبوب للنفس فترى الإنسان لا يهمه أن يتعب بدنه ولكن لا يحب أن ينفق شيئاً من المال فجاء التنبيه من الله تعالى على هذه المسالة بتقديم الجهاد بالمال على النفس[٤] .

والوجه الثاني من تقديم المال على النفس لأن الجهاد محتاج أن تبذل مالاً قبل أن تذهب إليه فأنت محتاج لشراء سلاح قبل أن تذهب ومحتاج لشراء دابة وخاصة في السابق أنت من يشتري عدة قتالك بخلاف الجيوش النظامية هذا وجه آخر في تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، وعلى كل حال الآية تحتمل هذا وهذا لأنه لا تعارض بينهما فيقال قدمه لأن المال محبوب على النفوس وقدمه لأنه يسبق الجهاد بالنفس .

وقد يخضع العدول الرتبي تقديما وتأخيرا لفكرة السياق العام والمناسبة اللائقة

---

(١) سورة الأنعام – آية ٣٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، ص ١٤٢ ، تحقيق : محمد خفاجي ، ط : مكتبة القاهرة بمصر ١٩٨٠م .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي ، ص ٢١٣ ، ط : مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط : الرابعة ١٩٤٥م [٥] جمعية الدعوة الإسلامية ١٩٩٧م .

(٤) ينظر : روح المعاني : ٥ / ٢٣٢ ، بتصرف ، ت / علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : الأولى ١٤١٥ هـ ، والتضمين النحوي في القرآن الكريم ، محمد نديم فاضل : ١/ ٢٦٣ ، رسالة دكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم ، الناشر: دار الزمان، المدينة المنورة المملكة العربية السعودية ، ط : الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

ومدار الفعل داخل هذا السياق ، وارتباطه على وجه التأسيس بطرف معين ، ومن ذلك قوله تعالى في ختام السورة الكريمة : { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } .

ختم الآية بقوله : { بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } حيث جاء سياق الكلام عن علمه سبحانه وإحاطته المطلقة بكل دقائق الكون ، فناسب ذلك تصدير صفته تعالى .

على حين قدم النسق الكريم الفعل على الصفة إذا كان سياق الكلام أو الآية في العمل ، ومنه قوله : { وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (١) .

وإذا كان الكلام ليس عن العمل أو الكلام عن الله تعالى وصفاته ، يقدم الصفة كما في قوله : { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (٢) .

وقوله: { وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }(٣)، وقوله: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }(٤)، وقوله: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } (٥) ، وقوله: { وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } (٦) .

(٣) ***التعريف والتنكير :***

إن مجيء لفظ في القرآن معرفة ، ومجيء لفظ آخر نكرة، ومجيء لفظ آخر معرفة في موضع ونكرة في موضع آخر لم يكن مصادفة في القرآن، إنما هو

---

(١) سورة البقرة – آية ١١٠ .
(٢) سورة البقرة – آية ٢٦٥ .
(٣) سورة هود – آية ١١١ .
(٤) سورة هود – آية ١١٢ .
(٥) سورة البقرة – آية ٩٦ .
(٦) سورة المائدة – آية ٧١ .

مقصود في كل موضع، وجيء به على تلك الحالة لينسجم السياق مع الذي ورد فيه ويتناسق معه، وإن تدبر السياق في الآية يقود إلى معرفة الحكمة من ذلك، وسر اختيار اللفظ معرفة أو نكرة [١] .

ومن أظهر صور العدول بأمر الله تعالى في هذا السياق تنكير الجزاء في قوله : { مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } وإيراده نكرة مبهماً أمره للدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله – ﷺ – من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول الله – ﷺ – وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء [٢] .

وتأمل في هذه الآية الكريمة كيف جمع الله لهم المغفرة والأجر العظيم لأن الإنسان محتاج لمغفرة ذنوبه وإلى رفعة درجاته .

ومنه أيضا تنكير (كثيرا) في قوله تعالى في سياق النهي عن سوء الظن : { اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ } ومجيئه نكرة يفيد معنى البعضية ، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين ؛ لئلا يجترىء أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل ، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة ، مع استشعار للتقوى والحذر ؛ ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطاً بما يكثر من دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنباً ، وما اتصف منه بالقلة مرخصاً في تظننه. والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها: أنّ كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر : كان حراماً واجب الاجتناب ؛ وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم ، بخلاف من اشتهره الناس يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث [٣] .

وقد يأتي التنكير لغرض العموم وهو المشهور في بابه ، لعلاقة سببية معنوية بين الفاعل ومتعلقه ومن صوره تنكير (فَاسِقٌ) و(نبأ) في سياق التحذير من مغبة

---

(١) إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني ، صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص ٢٣٠ ، ط : دار عمار ، عمان ، ط : الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ م .

(٢) الكشاف ٣٥٩ .

(٣) الكشاف ٢٧٤ ، ٣٧٥ .

المسارعة في تصديق الاخبار الواردة دون روية أو تريث في قوله : { إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ... } فالفاعل (فاسق) فيه خروج وتجاوز ومنتجه (نبأ) يجب أن يكون متجاوزا وخارجا بالتبعية ، فهو شياع في الفساق والأنباء ، كأنه قال : أيّ فاسق جاءكم بأيّ نبأ . فتوقفوا فيه وتطلبوا الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق ؛ لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه [١].

(٤) القصر :

وهو من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات العديدة ، فهو فن دقيق المجرى لطيف المغزى جليل المقدار كثير الفوائد غزير الأسرار [٢] .

وقد جاء أسلوب القصر في السورة الكريمة في صورة التعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الخلاف بينهم ، وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين ، فذكر الحق تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } .

والملاحظ أن الآية استخدمت أداة الحصر " إنّما "وهي تدلّ على قصر المسند على المسند إليه فلا يوجد بين المؤمنين إلا علاقة الأخوة .

فالجملة موقعها موقع العلة ، وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة . فهو قصر ادعائي أو هو قصر إضافي للرد على أصحاب الحالة المفروضة الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين .

وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازاً على وجه التشبيه البليغ زيادة لتقرير معنى الأخوة بينهم حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخُوَّة . وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين لأن شأن {إنما } أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما يُنَزِّل منزلة ذلك كما قال الشيخ في «دلائل الإعجاز «في الفصل الثاني عشر وساق عليه شواهد كثيرة من القرآن وكلام العرب فلذلك كان قوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } مفيد

---

(١) الكشاف ٣٦٢ .

(٢) من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، ص ٨ ، ط : عالم الكتب ، بيروت ط : الثانية ١٩٨٤م .

أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر . وقد تقرر ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى وكلام رسوله – ﷺ – من ذلك قوله تعالى : { يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ } (١) ، وهي سابقة في النزول على هذه السورة فإنها معدودة الثانية والمائة ، وسورة الحجرات معدودة الثامنة والمائة من السور . وآخى النبي بين المهاجرين والأنصار حين وروده المدينة وذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين . وفي الحديث لو كنت متّخذاً خليلاً غيرَ ربي لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام أفضل.

وتفريع الأمر بالإصلاح بين الأخوين ، على تحقيق كون المؤمنين إخوة تأكيد لما دلت عليه { إنما } من التعليل فصار الأمر بالإصلاح الواقع ابتداء دون تعليل في قوله : { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا } ، وقوله : { فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ } (٢) قد أردف بالتعليل فحصل تقريره ، ثم عقب بالتفريع فزاده تقريراً ، وقد حصل من هذا النَظم ما يشبه الدعوى وهي كمطلوب القياس ، ثم ما يشبه الاستدلال بالقياس ، ثم ما يشبه النتيجة .

(٥) <u>الالتفات :</u>

وهو التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة – أعني المتكلم والمخاطب والغيبة – بعد التعبير عنه بطريق آخر منها (٣).

ومن صوره في السورة الكريمة : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة { أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} بعد قوله : { حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ... } فقوله : { أولئك هُمُ الراشدون } أشبه بالجملة الاستئنافية المستقلة التى تقرر حالة من تحلوا بتلك الصفات السابقة بفضل الله ونعمته عليهم ، حيث نلاحظ تقدم المسبب على نحو صريح . وفي تصدير جملة الالتفات إلى الغيبة باسم الإشارة للبعيد من التعظيم ما لا يخفى .

---

(١) سورة الحشر – آية ١٠ .

(٢) سورة الحجرات – آية ٩ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ، أبو حيان التوحيدي الأندلسي : ١/ ٢٤ ، ط : دار الفكر، بيروت (د.ت)، وبديع القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري المصري ، ص ٤٥ ، ط : مكتبة نهضة مصر ١٩٥٧م ، والبرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد ابن عبد الله الزركشي: ٣ / ٣١٤ –٣١٥ ، ط: دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٠م ، وعروس الأفراح ، ضمن شروح التلخيص ، بهاء الدين السبكي : ١ / ٤٦٣ – ٤٦٤ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده ، مصر .

(٦) المقابلة :

تعد المقابلة من المحسنات البديعية المعنوية التي ترجع إلى تحسين المعنى. وقد جعلها بعض علماء البلاغة مستقلة بذاتها ، بعدما كانت عند بعضهم مختلطة مع الطباق وهي طباق متعدد عناصر الفريقين المتقابلين، وفيها يؤتى بمعنيين فأكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب. والعنصر الجمالي في المقابلة هو ما فيه من التلاؤم بينه وبين تداعي الأفكار في الأذهان ، باعتبار أن المتقابلات أقرب تخاطرا إلى الأذهان من المتشابهات والمتخالفات (١).

ومن أظهر صورها في السورة الكريمة قوله تعالي: { حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } ، وقد كان من دعاء النبي – ﷺ – كما في المسند عند النسائي في أذكار اليوم والليلة أنه كان يقول : " اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين " .

فالمقابلة وقعت بين فعلي التحبيب والتكريه ومتعلقاتهما على الترتيب، على معنى الالتزام والترك، فمعنى { حبّب }: أمرهم بالالتزام بالإيمان تحببا لله في الطاعة وهو الإحسان في الالتزام وتحري الصلاحيات في موضعها وعدم الافتئات رحمة من الله بالأمة .

ومعنى { كرّه } أمركم بترك الكفر والفسوق والعصيان التزام قناعة مستقرة في النفس لا كما فعل الذين نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ثم النتيجة قال: { أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } بعد ذلك امتن الله علينا بهذا المنهج فقال : { فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } .

وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك دون ضمير المتكلم لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حبب إليه ونبذ ما كره إليه .

(٧) الطباق :

وهو ضرب من المحسنات المعنوية التى تنشط الذهن إلى التأمل في حقيقة

---

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى : ١ / ٧٥٢ ، ط : دار القلم ، دمشق ، ط : الأولى ١٤١٦هـ .

المعاني عبر اثبات الفروق بين المعنيين، وهو الجمع بين معنيين متقابلين سواء كان التقابل تقابل تضاد أو الايجاب والسلب، وسواء كان هذا المعنى حقيقيا او مجازيا [١].

وقد جاء في السورة الكريمة بين الفعلين كما في قوله : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } بين { اقتتلوا } و{ اصلحوا } في حالة الايجاب، ومنه في صورة السلب { آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ } بين إثبات الإيمان ونفيه في حق الأعراب الذين ادعوا الانتساب إلى الإيمان فرد القرآن عليهم دعواهم بأن الامر لا يعدو أن يكون نطقا بلفظ الإسلام لا حقيقة الإيمان وهو التسليم الكامل والامتثال التام لكل ما جاء به الرسول اعتقادا وعملا .

(١) علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ، أحمد مصطفى المراغي ، ص ٣٢٠ ، ط : دار الكتب العلمية ، دون السنة .

المبحث الرابع

المستوى التصويري

وعلى صعيد القيم الجمالية والبعد التاثيري لها نقف على دراسة السورة الكريمة على مستوى النسق التصويري وأثره الجمالي على الخيال والعقل، وانعكاس ذلك على المستوى النفسي وأثره الوجداني في الملتقي بوجه عام والمسلم كفرد في بنية المجتمع بوجه خاص .

والصورة في نسق سورة الحجرات تحمل عنصر الخيال والإثارة ؛ لأن الصورة فيها – كما سيتضح – تخاطب مراكز الوعي كلها في الملتقي ولا تلغي دور العقل أو غيره عند صياغتها ، كما تتميز الصورة الفنية في السورة بأنها تجمع في الوقت نفسه بين الهدفين : الديني في التوجيه والتشريع ، والفني في الامتاع في آن واحد سواء أكانت تشبيها أم استعارة .

<u>التشبيه :</u>

يعتمد التشبيه في حقيقته على عقد مشابهة بين أمرين مختلفين يتفقان في صفة أو أكثر ، وهذا الأمر يدعو المبدع للجوء إليه إذ يمنح النص بعداً إيحائياً من خلال القدرة على تقريب الصورة إلى الأذهان ، فيعمل عمل الاستعارة فهما يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد وقد تعددت صوره في السورة الكريمة :

١- التشبيه المرسل المجمل في قوله : { وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ } لوجود أداة التشبيه [١] .

٢- التشبيه البليغ في قوله : { إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ } أصل الكلام المؤمنون كالإخوة في وجوب التراحم والتناظر، فحذف وجه الشبه وأداة التشبيه، فأصبح بليغاً مع إفادة الجملة الحصر [٢] .

٣- تشبيه التمثيل { أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً } فهذا التمثيل التصويري صورة بصورة ، جعل القرآن العظيم أن ذكرك أخاك في غيبته بما يكره كأن

---

(١) صفوة التفاسير ، المؤلف : محمد علي الصابوني : ٣ / ٢٢١ ، الناشر : دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط : الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

(٢) المرجع السابق نفسه .

تنهش لحم أخيك الميت، بجامع أن الغائب لا يملك أن يرد عن نفسه حال غيبته، والميت لا يملك الدفاع عن نفسه لموته ، وقبح الفعل يأتي بالتعبير عنه بقوله: (فَكَرِهْتُمُوهُ) ، هذا أكل لحم أخيه لا لحم الغير، وهنا يبرز معنى الأخوة ؛ لأن معنى الأخوة : العاطفة والرحمة والتآلف والتراحم، أما أن تغمز وتلمز وتغتاب أخاك وتصفه بما يكره، فهذه ليست من معاني الأخوة في شيء .

يقول الزمخشري : (تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه . وفيه مبالغات شتى ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها : أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها : أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً) [١] وعن ابن عباس : أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّي لهما طعامهما ، فنام عن شأنه يوماً ، فبعثاه إلى رسول الله – ﷺ – يبغي لهما إداماً ، وكان أسامة على طعام رسول الله – ﷺ – فقال : ما عندي شيء ، فأخبرهما سلمان بذلك ، فعند ذلك قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، فلما راحا إلى رسول الله – ﷺ – قال لهما : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ، فقالا : ما تناولنا لحماً فقال : إنكما قد اغتبتما فنزلت [٢] .

<u>الاستعارة :</u>

وهي في أبسط تعريف لها استبدال شيء بشيء أو لفظ بلفظ لعلاقة محددة هي دائما المشابهة وهي تمثل الأساس الذي انبثقت عنه أو منه نظرية الاستعارة الحديثة المعروفة بـ (النظرية الاستبدالية) التى ترى الاستعارة غلاقة لغوية تقوم على المقارنة شأنها في ذلك شأن التشبيه ولكنها تتمايز عنه بانها تقوم على الاستبدال أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات ، أي أن المعنى لا يقدم فيها بطريقة مباشرة بل يقارن ويستبدل بغيره على أساس المشابهة ، ففي الاستعارة نواجه طرفا واحدا يحل

---

(١) الكشاف ٣٧٦ .

(٢) السابق ٣٧٧ .

محل طراف آخر [١] وهي في جوهرها تمثل ما يسمى بالمحور الاستبدالي كظاهرة أسلوبية .

ومن هذه الاستعارات المصورة قوله : { أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ }

إن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر ، فضلا عن تقرير قاعدة سلوكية وهي بعض الآثام قد يكون سببا في إحباط العمل .

وقال الزمخشري : " والحبوط من حبطت الإبل إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها وربما هلكت ومنه قوله – ﷺ – : " وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا " [٢] .

" ولعله عند الله كذلك ؛ فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ [٣].

ومنه التعبير بـ " يغضون " بدلا من يخفضون مثلا، مع العلم أن الغض يستعمل عادة في البصر، وبخاصة أن الآية الأولى ذكرت: لا ترفعون .. يجهرون .. بدلا من : يعلنون .. لأنَ الْغَضَّ حَقِيقَتُهُ : خَفْضُ الْعَيْنِ، أَيْ أَنْ لَا يُحَدِّقَ بِهَا إِلَى الشَّخْصِ " وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِخَفْضِ الصَّوْتِ وَالْمِيلِ بِهِ إِلَى الْإِسْرَار [٤] .

وهذا بخلاف الأمر الوارد في خطاب لقمان لابنه في قوله تعالى: { وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ } فالغض فيها بـ من المزيدة تعني التبعيض فيخفض منه بحيث لا يكون مرتفعاً فيؤذي ولا يكون همساً فلا يُسمَع فثمة فرق بين خطاب عموم الناس غض من الصوت وأما عند الرسول فتغض صوتك .

فيعني يخفضه تماماً وحتى بعد نزول هذه الآية كان الصحابة لا يكاد يُسمع صوتهم أمام رسول الله – ﷺ – ولذلك : { قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ } [٥] استخدم القرآن الفعل غضّ مع البصر يغض من بصره أي يقلل أما يغض بصره فلا يرى شيئاً .

---

(١) الاستعارة في النقد الادبي الحديث ، يوسف أبو العدوس ، ص ٧ ، ٥٣ ، ٥٤ ، الاهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط : الأولى ١٩٩٧م .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ، المؤلف : محي الدين الدرويش: ٩ / ٢٥٦ ، ط: دار الإرشاد ، سورية .

(٣) الكشاف ٣٥٨ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٢٣ .

(٥) سورة النور – آية ٣٠ .

وهكذا تتجلى أمامنا مظاهر التناسق الفني والأسلوبي في السورة سواء من ناحية الأفكار العامة التى دارت حولها ، ثم التناسب الاسلوبي على كافة المستويات دلاليا وبنائيا وتركيبيا وتصويريا في دقة متناهية تؤكد الإعجاز البياني للقران .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته وفضله تتم الصالحات ، وأصلى وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعـــــد

فقد تناولت هذه الدراسة أسلوب سورة الحجرات في عرض صورة المجتمع المسلم واقفة على أهم الظواهر الأسلوبية حضورا في نسق السورة الكريمة ، مبرزة دورها الدلالي والبلاغي ، وخلصت الى مجموعة من النتائج أهمها :

١. تناولت الدراسة نسق السورة الكريمة ضمن حدود منهج أدبي هو الأسلوبية بهدف كشف جمالياته وسر سمو تعبيره وتأثيره في النفس ، على هدي من فهم اللغة وعلاقاتها ، فتميز أسلوب عرض السورة الكريمة للحقائق والصفات لصورة المجتمع المسلم بخصائص جلية تعطي للنسق الوصفي روعة ووضوحا ، ويأتي هذا من خلال التعبير الفني والبنيان المتماسك المتناسق الذي تميزت به السورة الكريمة لتأكيد ظاهرة أو إيضاح حالة كنتيجة طبعية للخطاب والتوجيه الرباني العام .

ومن هذه الظواهر التوجيهية والحالات الحادثة في جماعات المسلمين .

- أنَّ مَن يقدم رأيه أو رأي قبيلته أو قرابته على كتاب الله – ﷻ –وسنَّة نبيه – ﷺ – لم يتَّقِ الله – ﷻ – حقَّ تُقاته .
- بيَّنت سورة الحجرات المكانةَ الرفيعة لرسول الله – ﷺ – في ميزان الله – ﷻ – وذلك بتحريم رفع الصوت فوق صوتِه – ﷺ – وتحريم الجهر له بالقول ، كما يُعامل الناس بعضهم بعضًا .
- عناية القُرآن الكريم بتوحيد مصدر التلقِّي باعتبار أوَّل آيةٍ في سورة الحجرات بدَأتْ بذِكر هذا الأدب العظيم الذي يُورث ألفةَ القلوب واستِقرار المجتمعات .
- الميزان الحقيقي الذي يُوزَن به الناس أنفسهم لا يتعلَّق بظواهر الأشياء من الأمور الماديَّة ، وإنما الميزان الحقيقي هو تقوى الله – ﷻ – .
- إنَّ السخرية واللمز والنبز وسوء الظن والتجسُّس والغيبة ، من الصفات المذمومة التي حذَّر ونهى الإسلامُ عنها ؛ لأنها تُورث الفرقة والتمزُّق

والكراهية والبغضاء بين صُفوف المسلمين .

- المساواة من المبادئ الإسلاميَّة التي جاء بها الإسلام ، وذلك لكي يكونَ المسلم على علمٍ ويقينٍ بحقيقة وُجوده التي أوجَدَه الله – ﷻ – عليها ، وإنَّ التفاضُل يكمُن في تقوى الله – ﷻ – .
- في مسألة الجهاد قدَّمت الآية الكريمة جهاد المال على جهاد النفس؛ لكون جهاد المال تهيئةً لجهاد النفس، وكان الذي لا يُجاهد بماله لا يجاهد بنفسه إذا دعا داعي النفير للقتال في سبيل الله، مع علوِّ مرتبة المجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.
- عناية الإسلام – عند حُلول المشكلات المتعلِّقة بأحوال الأفراد والأسر والمجتمعات – بالصُّلح وتقديمه على غيره ، من الحلول المتعلِّقة باستخدام الشدَّة وما يتبعها من وسائل .
- رحمة رسول الله – ﷺ – بأمَّته وشفقته عليهم، ويتجلَّى ذلك في قوله تعالى: { وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ... }[1].

٢. ثمة رؤية شمولية لفعاليات النسق في السورة الكريمة وعلى كافة المستويات الأسلوبية والتي جاء هذا البحث لاكتشافها وهي صورة المجتمع المسلم، ويتمحور حول كلمة (الإيمان) والنداء به، كخلفية للصورة الكلية تظهر عن طريق دراسة جزئيات نسق السورة ومحاولة الربط بينها ، بجميع طاقاتها وفعالياتها يجري في تناغم وانسجام يستغرق أجواء السورة كلا متلاحماً في موضوعه وبنيته الأسلوبية وشخصيته الفنية مما يعتبر هدفاً كبيراً تسعى الدراسة إلى تحقيقه وهي بصدد رسم صورة المجتمع .

- فعلى المستوى الدلالي العام وبحسبانه سقفاً للرؤية الأدبية الشاملة للخطاب كتوجيه وتشريع وآداب عامة تؤطر لحركة المسلم داخل المجتمع في السورة الكريمة ، ووقوفا على الوحدة الفنية في مرحلة تالية وتطبيقاً لهذه الرؤية تنوعت أساليب التوجيه من : ترغيب والترهيب عن طريق الاتزان بين الدوافع والموانع ثم : التذكير بفضل المولى – ﷻ – مدعاة للالتزام بالخطاب الرباني

(١) سورة الحجرات – آية ٧ .

ثم بيان عواقب عدم التزام بهذه الآداب ثم تنمية الوازع النفسي كمرحلة تربوية لاحقة للالتزام بهذه المبادئ .

- وعلى المستوى البنائي نهضت فاعلية الأداء في السورة الكريمة عبر توظيف أدوات النداء والاستفهام والشرط توظيفاً فعّالاً ومتنوعاً أغنت فكرة الخطاب والتوجيه في مرحلة سابقة ثم الاستجابة والرضوخ لفعلي الأمر والنهي في مرحلة لاحقة ، وزادت من روعة النص بشكل عام لكل متلق .
- حملت السورة الكريمة شحنة وجدانية نراها حاضرة في معظم آياتها وسياقاتها تؤكد أن النسق يخاطب العقل والقلب عن طريق التأثير النفسي والعقلي في آن في علاقة تفاعلية بين توجيه وتشريع المبدع – ﷻ – وبين عباده المؤمنين . تتجلى في إثارة منافذ الوعي لدى المتلقي لتصل إلى تحقيق أمرين هما الإقناع والإمتاع مع استخلاص ظواهر أسلوبية في نسق الصورة أبرزها التناسق الفني .
- اعتماد نسق السورة الكريمة في أدائه التعبيري على سمتين بارزتين تفرد بهما ، هما دقة الاختيار وحسن التوظيف وهو أثر لفكرة العدول بأمر الله تعالى أو العدول الأسلوبي ، الذي تعددت صوره ومظاهره في السورة الكريمة، في شتى أنماط الصيغ، في الأسماء والأفعال والحروف، وعلائقها من ناحية الجمع والإفراد أو التذكير والتأنيث، أو حتى في تحولات الرتبة كما في صور الحذف والذكر أو التقديم والتأخير ... الخ، ومن خلال هذه الظاهرة الأسلوبية يتشكل النسق العام ، لمعرفة الأبعاد الدلالية لهذا التركيب .

٣. تأكد من خلال البحث أن ترتيب الآيات داخل السورة – كما هي في المصحف – إنما تم لغاية من التناسب والتناسق تتجاوز ظروف نزول الآية في حينه وزمنها لتشغل مع رصيفاتها رؤية متجانسة تتميز بها السورة . تقريباً للفهم وتيسيراً للمتابعة وهي بصدد توجيه المسلم إلى كونه عضوا في بنية المجتمع ككل ، وهو ما عناه بعض الدارسين بالقول : إن آيات القرآن جاءت على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيلاً .

٤. توافرت بشكل متكامل في السورة الكريمة الأركان الثلاثة للرسالة اللغوية التي

يقوم عليها التفكير الأسلوبي وهي : المبدع تجلى سبحانه عن النظير – المتلقي المسلم المستعد لتلقي الخطاب – مضمون الرسالة وهو مجموعة الخطابات الموجة والمشرعة. وقد تفاعلت هذه العناصر المكونة في صورة حركية مع بعضها البعض من أجل تحقيق عملية الإقناع وعملية الإمتاع والإثارة من خلال منظور أن القرآن كتاب سماوي أبدعته القدرة الإلهية تخاطب به الإنسان وتخلق لنفسها ما تشاء من المقاييس . ولكنه نسق مذلل للفهم والاستيعاب والتحليل لاكتشاف جماليات تسمو على كل ما عداها لتبقى نموذجاً يحتذي في التعبير الأدبي، وصدق الله – ﷻ – القائل : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } [١] .

(١) سورة القمر – آية ١٧ .

المراجع والمصادر البحث

** القرآن الكريم (جل من أنزله) .

١. أحكام القرآن ، أبو بكر أحمد بن علي الجصاص ، ت/ عبد السلام محمد شاهين ، ط : الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥هـ ١٩٩٤م

٢. آداب وضوابط المجتمع الإسلامي من خلال سورة الحجرات ، د / وسيم فتح الله ، بحث منشور في موقع صيد الفوائد: http://www.saaid.net/book على شبكة المعلومات الدولية.

٣. الاستعارة في النقد الادبي الحديث ، يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، ط : الأولى ١٩٩٧م .

٤. أسلوب العدول بأمر الله تعالى في النص القرآني ، أحمد غالب التورى الخرشة ، رسالة دكتوراة ، جامعة مؤتة ٢٠٠٨م .

٥. إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط : دار عمار ، عمان ، ط : الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

٦. إعراب القرآن وبيانه ، المؤلف : محي الدين الدرويش ، دار النشر : دار الإرشاد ، سورية .

٧. بحر العلوم : أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، تحقيق : د / محمود مطرجي ، دار النشر : دار الفكر ، بيروت .

٨. البحر المحيط : أبو حيان التوحيدي الأندلسي، دار الفكر ، بيروت (د.ت) .

٩. بديع القرآن ، ابن أبي الإصبع المصري المصري ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ١٩٥٧م .

١٠. البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبي وشركائه ، ودار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط : الأولى ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م .

١١. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى ، دار القلم ، دمشق ، ط : الأولى ١٤١٦هـ .

١٢. البلاغة الميسرة ، فيصل حسين طحيمر العلي ، مكتبة دار الثقافة الأردن ، ط : الأولى ١٤١٨هـ .
١٣. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ) ، الناشر : الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٤ هـ .
١٤. تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف : أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
١٥. تفسير الرازي مفاتيح الغيب = التفسير الكبير : فخر الدين الرازي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط : الثالثة ١٤٢٠ هـ .
١٦. تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، محمد بن جرير ابن يزيد الطبري، أبو جعفر، تحقيق : محمود شاكر أبو فهر ، أحمد شاكر أبو الأشبال شاكر ، ط : الرسالة .
١٧. تفسير القرآن العظيم ، المؤلف : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين ، تحقيق : سامي بن محمد السلامة ، الناشر: دار طيبة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .
١٨. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، د / وهبة بن مصطفى الزحيلي ، الناشر : دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ط : الثانية ١٤١٨هـ .
١٩. التوقيف على مهمات التعاريف ، محمد عبد الرؤوف المناوي ، تحقيق : د / محمد رضوان الداية ، الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، دمشق ، ط : الأولى ١٤١٠هـ .
٢٠. الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي ، دار الكتاب العربي، القاهرة ، د.ت .

٢١. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، المؤلف : أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) ، تحقيق : الدكتور / أحمد محمد الخراط ، الناشر : دار القلم ، دمشق .
٢٢. دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط : الثانية ١٩٦٣م .
٢٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، أبو الفضل محمود الألوسي ، دار إحياء التراث ، بيروت .
٢٤. سبل السلام ، محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني (موقع الإسلام : www.al-islam.com) .
٢٥. شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية ، د / محمود توفيق محمد سعد ، أستاذ البلاغة والنقد ورئيس القسم ، في كلية اللغة العربية ، شبين الكوم ، جامعة الأزهر الشريف ، ط : الأولي ١٤٢٢هـ .
٢٦. صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، المؤلف : مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٢٧. صفوة التفاسير ، المؤلف : محمد علي الصابوني ، الناشر : دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط : الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م .
٢٨. عروس الأفراح ، ضمن شروح التلخيص ، بهاء الدين السبكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده ، مصر .
٢٩. علم الدلالة العربي (دراسة تأصيلية تاريخية نقدية) ، فايز الداية ، دار الفكر ، دمشق ، ط : الأولى ١٩٨٥م .
٣٠. علم الدلالة علم المعنى ، محمد علي الخولي ، دار الفلاح ، عمان (د ط) ٢٠٠٠م .
٣١. علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ، أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، دون السنة .

٣٢. فتح الباري – ابن حجر العسقلاني فتح الباري – المؤلف : زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي ، الشهير بابن رجب ، تحقيق : أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار النشر: دار ابن الجوزي ، السعودية ، الدمام ، ط : الثانية ١٤٢٢هـ.
٣٣. الفروق اللغوية للعسكري ، المؤلف : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ابن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ) حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة .
٣٤. في النحو العربي نقد وتوجيه ، د / مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط : الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .
٣٥. في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط : السابعة عشر ١٤١٢هـ .
٣٦. القاموس المحيط ، المؤلف : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ) تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم العرقسُوسي ، الناشر : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان، ط: الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
٣٧. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٨. الكلمة دراسة لغوية معجمية ، حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩٥م .
٣٩. اللباب في علوم الكتاب لعمر بن علي الدمشقي الحنبلي ، ت : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط : الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .
٤٠. محاسن التأويل ، المؤلف : محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ،

الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : الأولى ١٤١٨هـ ، وط: دار الفكر ، بيروت ، ط : الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٤١. مختصر تفسير البغوي ، المؤلف: عبد الله بن أحمد بن علي الزيد ، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط : الأولى ١٤١٦هـ .

٤٢. المرشد في كتابة الأبحاث، حلمي محمد فودة، وعبد الرحمن صالح عبدالله، دار الشروق ، السعودية ١٤١٢هـ .

٤٣. المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، ت / صفوان عدنان الداودي ، الناشر: دار القلم، الدار الشامية ، دمشق ، بيروت ، ط : الأولى ١٤١٢هـ.

٤٤. من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، عالم الكتب ، بيروت ، ط : الثانية ١٩٨٤م .

٤٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، الناشر : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .